سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٥٨٩)

الاحتذاء

من مصنفات الأدب واللاغة

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

١-"الأرض قطعت الأرض شحمها على **احتذاء** ومثال هذا بهذا ويقول في المدح (من الكامل):

أني يكون أبا البرايا آدم ... وأبوك، والثقلان أنت، محمد

وتقديره: أني يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان وقال من نسيت قصيدة (من الطويل):

إذا عذلوا فيها أجبت بأنة ... حبيبتا قلبي فؤادي هيا جمل

أراد (يا حبيبتي) ثم أبدل الياء من حبيبتي ألفا تخفيفا، و (قلبي) منصوب لأنه بدل من حبيبتا، (فؤادي) بدل من قلبي، وهذا كقولك: أخي سيدي مولاي، نداء بعد نداء، ويقال في النداء: يا زيد، وأيا زيد، وهيا زيد وأشباه هذه الأبيات كثيرة في شعره كقوله (من الطويل):

لساني وعيني والفؤاد وهمتي ... أود اللواتي ذا اسمها منك والشطر

وقوله (من الطويل):

فتى ألف جزء رأيه في زمانه ... أقل جزى بعضه الرأي أجمع

وقوله (من الكامل):

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو ... عقمت بمولد نسلها حواء

وهو مما اعتل لفظه، ولم يصح معناه، فإذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر، وكد الخاطر، والحمل على القريحة. (ثم إن ظفر بعد العناء والمشقة فقلما يحصل على طائل

ومنها

عسف اللغة والإعراب

وهو مما سبق إلى القلوب إنكاره، إن كان عند المحتجين عنه الاعتذار له والمناضلة دونه، كقوله (من الطويل):". [١]

٢-"وإن كان النور لا حاجة به إلى السمع، ولا الإصغاء ولكنه ملح في السرقة.

وقوله:

يتفيأون ظلال كل مطهم ... أجل الظليم وربقة السرحان

قال السيخ أبو الفتح ورواه: يتقيلون، يقول يتقيلون آباء لهم سباقين إلى المجد والشرف، كالفرس المطهم الذي إذا رأى الظليم فقد هلك. وإذا رأى الذئب كان كأنه مشدود بحبل في عنقه. والعرب إذا مدحت رجلا شبهته بالفرس السابق كما قال النابغة. واستشهد بشعر كثير. ثم قال: وإنما استعار هنا لفظ الظلال لأن ظل كل شيء موازنه، وعلى سمته. فيريد بذلك **احتذاءهم** طريق آبائهم وسلوكهم مذاهبهم من غير تبديل ولا تعريج كما قيل:

---

(١) أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه ص/٧٤

شنشنة أعرفها من أخزم

ثم قال: ويحتمل أيضا أن يكون معناه انهم يستظلون بأفياء خيولهم في شدة الحر يصفهم بالتعرب والتبدي. فالحمد لله الذي أجرى الحق على لسانه عاقبة، كما أجرى الباطل عليه بدءا ما قال أبو الطيب، ولا روى عنه ألا يتفيئون. يريد يجلسون في أفياء خيولهم". (١)

٣-"وقوله:

يتقيلون ظلال كل مطهم ... أجل الظليم وربقة السرحان

قال: يقول: يتتبعون آباءهم سباقين إلى المجد والشرف؛ كالفرس المطهم الذي إذا رأى الظليم فقد هلك، وإذا رأى الذئب؛ كان كأنه مشدود بحبل في عنقه. والعرب إذا مدحت رجلا شبهته بالفرس السابق، كقول النابغة:

إلا لمثلك أو من أنت سابقه ... سبق الجواد إذا استولى على الأمد

ونحو ذلك، وهو كثير جدا، وإنما استعار هنا لفظ (الظلال) لأن ظل كل شيء ملازمه وعلى سمته، فيريد بذلك **احتذاءهم** طرق آبائهم وسلوك مذاهبهم من غير تبديل ولا تعريج، كما قال: (شنشنة أعرفها من أخزم).

وأقول: هذا التفسير ليس بشيء! وإنما قال قبل:

متصعلكين. . . . .

أي: يفعلون في غزوهم فعل الصعاليك، ثم قال:

يتقيلون ظلال كل مطهم. . . . ." (٢)

٤-"للذين يدخنون النصائح الآتية) وهي: ان لا يدخن عن النهوض من النوم والمعدة خالية ولا قبل الطعام ولا عقبه لان التدخين عدو الهضم الالد ولا في وقت العمل ولا في حالة الركوب على فرس او دراجة ولا في حالة قص الحديث والقاء الخطب

وان لا ينفث الدخان من انفه ولا يبتلعه قط وان يغسل فاه بعد تناوله وان لا يدع السيجارة او الغليون بين الشفتين برهة طويلة ثم ثالوا في آخر النصائح اكسر غليونك واحرق التبغ في الاصطبلات وغرف البيت لان دخان التبغ يبعد الذباب والهوام الاخرى وعلى الحقيقة ليس للتبغ سوى هذه المنفعة الوحيدة. اه.

وقال بعض النبهاء في مقالة انشأها في الجد في استئصال العوائد الفاسدة ان النفس لتانس بالاقتداء وتبادر الى **الاحتذاء** وقلت نفس تعاف الاتباع الى الابتداع والسر في ذلك كله ان الاتباع مهيع بين يسهل على كل ان يسلكه واما الابتداع فعدول عن المتعارف لا تنتجه الا قوة نفس وشهامة جنان وما اقل ما يجود الزمان بمن تهديه لبابته وتدفعه شجاعته الى ان

---

(١) الفتح على أبي الفتح ص/٣٢٥

(٢) المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي ٢٨٦/١

ينشر بنود المخالفة لعادة سائدة في الناس مهما اخلت بمصلحة الكافة بل مهما جرت عليهم الوبال اذا أنه ينفرد حزبا بنفسه ويصبح والقوم كلهم البا واحدا عليه ويكفيك هذا علة لتملك العادات السيئة الزمن الطويل الى ان قال فهذه النارجيلة كم اهلكت من مال واحدثت من داء وادخلت في عبودية فلو ان زيدا تصدى لجمع ما انفقته وما تنفقه سوريه وحدها في سبيل النارجيلة لرأى امام عينيه جبل ذهب ولو ان عمرا عني بعد من قضى بسبب النارجيلة مصدورا لتمثل شهداؤها". (١)

"والذي بين اختلاف دخوله فيهما، أنك تحصل على المجاز في مسألة الفعل بالإضافة لا بنفس الاسم، فلو قلت: أثبت النور فعلا لم تقع في مجاز، لأنه فعل لله تعالى، وإنما تصير إلى المجاز إذا قلت: أثبت النور فعلا للربيع، وأما في مسألة الحياة، فإنك تحصل على المجاز بإطلاق الاسم فحسب من غير إضافة، وذلك قولك أثبت بهجة الأرض حياة أو جعلها حياة، أفلا ترى المجاز قد ظهر لك في الحياة من غير أن أضفتها إلى شيء، أي من غير أن قلت لكذا. وهكذا إذا عبرت بالنفس، تقول في مسألة الفعل: جعل ما ليس بفعل للربيع فعلا له، وتقول في هذه: جعل ما ليس بحياة حياة وتسكت، ولا تحتاج أن تقول: جعل ما ليس بحياة للأرض حياة للأرض، بل لا معنى لهذا الكلام، لأن يقتضي أنك أضفت حياة حقيقة إلى الأرض، وجعلتها مثلا تحيا بحياة غيرها، وذلك بين الإحالة، ومن حق المسائل الدقيقة أن تتأمل فيها العبارات التي تجري بين السائل والمجيب، وتحقق، فإن ذلك يكشف عن الغرض، ويبين جهة الغلط، وقولك جعل ما ليس بفعل فعلا **احتذاء** لقولنا جعل ما ليس بحياة حياة لا يصح – لأن معنى هذه العبارة أن يراد بالاسم غير معناه لشبه يدعى أو شيء كالشبه، لا أن يعطل الاسم من الفائدة، فيراد بها ما ليس بمعقول. فنحن إذاتجوزنا في الحياة، فأردنا بها العلم، فقد أودعنا الاسم معنى، وأردنا به صفة معقولة كالحياة نفسها ولا يمكنك أن تشير في قولك: فعل الربيع النور، إلى معنى تزعم أن لفظ الفعل ينقل عن معناه إليه، فيراد به، حتى يكون ذلك المعنى معقولا منه، كما عقل التأثير في الوجود، وحتى تقول لم أرد به التأثير في الوجود، ولكن أردت المعنى الفلاني الذي هو شبيه به أو كالشبيه، أو ليس بشبيه مثلا، إلا أنه معنى خلف معنى آخر على الاسم، إذ ليس وجود النور بعقب المطر، أو في زمان دون زمان، مما يعطيك معنى في المطر أو في الزمان، فتريده بلفظ الفعل، فليس إلا أن تقول: لما كان النور لا يوجد إلا بوجود الربيع، توهم للربيع تأثير في وجوده، فأثبت له ذلك، وإثبات الحكم أو الوصف لما ليس له قضية عقلية، لا تعلق لها في صحة وفساد باللغة فاعرفه. ن لفظ الفعل ينقل عن معناه إليه، فيراد به،." (٢)

"المجلس الخامس عشر

وهو مجلس يوم السبت، ثامن وعشرين من جمادى الآخرة، سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

ثم إن سابور ذا الأكتاف جمع لهم وسار إليهم، فأقام على الحضر أربع سنين، وإن النضيرة بنت الضيزن رآها سابور ورأته، فعشقها وعشقته، وكان من أجمل أهل دهره، وكانت من أحسن أهل زمانها، فأرسلت إليه: ما الذى تجعل لى إن دللتك

---

(١) رسالة في الشاي والقهوة والدخان ص/٤١

(٢) أسرار البلاغة الجرجاني، عبد القاهر ص/٣٧٥

على عورة المدينة؟ فقال: أجعل لك حكمك، وأرفعك على نسائى، /وأخصك بنفسى دونهن، فدلته (١) على قنوات كان يجرى الماء فيها من دجلة إلى المدينة، فقطع الماء عنهم، وفتحها عنوة، وقتل الضيزن وأباد بنى العبيد، وأصيبت قبائل من حلوان بن الحاف بن قضاعة فانقرضوا.

قال ابن دريد (٢): تفرعت قضاعة بين الحاف والحاذى (٣)، واشتقاق الحاف من الحفا، والحاذى من **الاحتذاء**. انتهى كلامه.

والحاف: مما حذفت العرب ياءه اجتزاء بالكسرة، كقولهم: العاص (٤)، فى العاصى

(١) حكى أبو الفرج والطبرى حيلة أخرى. انظرها فى الأغانى ٢/ ١٤٢، والتاريخ ٢/ ٤٩.

(٢) الاشتقاق ص ٥٣٦.

(٣) فى هـ: «الحادى» بالدال المهملة، هنا وفيما يأتى. وصوابه بالذال المعجمة.

(٤) سيأتى هذا فى المجلس الثالث والخمسين.." (١)

"ب- شعره:

تتشابك في تكوين شاعرية شوقي وشخصيته الأدبية عناصر كثيرة، منها الجنسي ومنها الثقافي، أما من حيث الجنس فقد التأمت فيه خمسة عناصر، جعلته عربيا كرديا تركيا شركسيا يونانيا، وازدواج هذه العناصر الجنسية فيه يؤذن منذ أول الأمر بأنه سيكون شاعرا كبيرا، وخاصة أنه يجمع بين الجنسين العربي واليوناني، اللذين يشتهران من قديم بالشعر والشاعرية.

وأما من حيث الثقافة فقد حذق العربية والفرنسية، وتلقن التركية في بيته، ولكن أثرها لم يكن واسعا في فنه سوى بعض أبيات ترجمها منها وأثبتها في ديوانه، أما تيارا العربية والفرنسية فيجريان واضحين في شعره، وكان للتيار الأول الغلبة، فهو الذي تتدفق في شعره مياهه أروع ما يكون التدفق وأبهجه.

وكان أكبر نبع يستقى منه هذه المياه كتاب "الوسيلة الأدبية" للشيخ حسين المرصفي، وهو يضم بين دفتيه أروع ما للقدماء من نماذج كما يضم بعض نماذج البارودي الحديثة، ولم يكد يلم شوقي بهذه النماذج الأخيرة حتى احتواها لنفسه وفنه، فقد تمثلها تمثلا رائعا.

وعكف على تمثل النماذج العباسية عند أبي نواس والبحتري وأبي تمام والمتنبي والشريف الرضي وأبي فراس وأمثالهم، وكان إعجابه شديدا بالبحتري والمتنبي خاصة. وسرعان ما اهتدى إلى أسلوبه، وهو أسلوب يسلك نفس الدروب التي سلكها البارودي من قبله، أسلوب يقوم على **الاحتذاء** للقوالب العباسية، ولا يجد صاحبه جرحا في أن يعارض أصحابها؛ بل يعلن ذلك إعلانا كما كان يعلنه سلفه، فتلك أمارة الإجادة الفنية، وهي إجادة تقوم على بعث الصياغة القديمة وإحيائها.

(١) أمالي ابن الشجري ابن الشجري ١٤٨/١

وعلى هذا النحو استطاع شوقي أن يكون لنفسه أسلوبا أصيلا، أسلوبا لا يتحرر من القديم؛ ولكن في الوقت نفسه يعبر عن الشاعر وعصره وكل." (١)

"ب- شعره:

يجري في شعر خليل مطران كما يجري في شعر شوقي تياران من القديم العربي والجديد الغربي، وهما إن كانا يتفقان في هذه الظاهرة العامة فإنها يختلفان بعد ذلك في كل شيء؛ ذلك لأن خليل مطران لا يسرف على نفسه في الصب على القوالب القديمة، فقد كان شوقي وخاصة قبل منفاه يبدو شاعرا تقليديا، فهو يعنى أشد ما يعنى بمعارضة الأقدمين، وهو يصرح بذلك ولا يخفيه كما كان يصنع سلفه البارودي.

أما خليل مطران فلم يلجأ إلى المعارضة والاحتذاء التام على قصائد العباسيين وغيرهم في الوزن والروي، بل كان يكتفي باللفظ الفصيح والمفردات السليمة من كل شائق في العربية ورائق؛ ومعنى ذلك أنه يحتفظ بشخصيته إزاء القدماء بأكثر مما يحتفظ شوقي، هو يأخذ منهم المادة، ولكنه يدخلها إلى مخيلته ليحملها أفكاره ومعانيه. ومن ثم لا يبدو التقليد واضحا عنده؛ بل لقد اندفع إلى التجديد حتى في الصياغة والأسلوب، فلم يعد همه التمسك بأهداب القدماء لا في معانيهم ولا في تشبيهاتهم واستعاراتهم؛ بل همه التعبير عما في نفسه تعبيرا حرا مستقيما لا تحجبه تراكيب قديمة ولا أصداف خيال قديمة. ومع ذلك تقرأ فيه فتشعر شعورا واضحا بأن صورة الشعر العربي لم تتغير؛ لأنه يحتفظ بالأصول المسبوقة مع التحرر منها، فهو يتابع في الظاهر والخارج، أما في الباطن والداخل فإنه يجدد ويخالف ويعبر عما في نفسه تعبيرا كاملا، يصور فيه معانيه العقلية والنفسية، وشرح ذلك أجمل شرح في مقدمته لديوانه؛ إذ يقول:." (٢)

"تختلف اختلافا بينا عما كانوا يعرفونه، فليس فيها التكلف وليس فيها السجع والبديع؛ وإنما فيها الأسلوب المرسل الشفاف الذي لا يخفي شيئا من المعنى ولا يستر دلالة من الدلالات. فشكوا فيما يألفون، سواء من جهة الأساليب الدينية الملتوية أو من جهة الأساليب الأدبية المقيدة بالسجع والبديع، وطلبوا طرق التعبير القديمة في الدين والأدب جميعا.

وفي أثناء ذلك كان يشتد الاتصال بالغرب، فقد فتحت قناة السويس، ونزل في مصر كثير من الأجانب، وأخذ المصريون يطلعون من قرب على الحياة الأوربية المادية. وكان ذلك يزيد من شعور المصريين بقوميتهم، وأن لهم شأنا في العالم وعلاقاته الاقتصادية، كما كان يؤثر في أذواقهم وعقولهم؛ فإن العلاقات الحضارية يتشابك بعضها ببعض.

وجد المصريون منذ عصر إسماعيل في دعم اتصالهم بالغرب، فهم يكثرون من المدارس ويفتحون أبواب التعليم العالي على مصاريعها، ويؤسسون الأوبرا ويقيمون دار الكتب للقراءة والاطلاع المنظم. وبعث ذلك كله نهضة واسعة في مصر، نهضة غيرت الأذواق، وهيأتها لتطور واسع في الميادين الأدبية. وكانت تدفع هذه النهضة بقوة روح المصريين الجديدة وشعورهم بأن وراء ما يقرءون في الدين والأدب نماذج قديمة جديرة بالاحتذاء والتقليد، فأقبلوا عليها يقرءونها ويتأثرونها.

ولم يكن هذا التيار العربي القديم وحده هو الذي يغير في أذواقهم وعقلياتهم، فقد كان هناك تيار آخر يأتيهم من وراء البحر،

---

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر شوقي ضيف ص/١١٤

(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر شوقي ضيف ص/١٢٣

لا بالأوربيين الذين يستوطنون ديارهم فحسب؛ بل بالعلم الأوربي والأدب الأوربي، وكان تصالهم بالعلم أسبق من اتصالهم بالأدب؛ ولكنه لم يحدث تبدلا في حياتهم الأدبية؛ إنما حدث هذا التبدل حين أخذوا يتصلون مباشرة بالآثار الأدبية الغربية ويتذوقونها، ولم يكتفوا بذلك؛ فقد أخذوا يترجمونها، وشاركهم في هذه الترجمة عنصر عربي هاجر إلى ديارنا، هو عنصر السوريين واللبنانيين الذين وفدوا علينا فارين من اضطهاد العثمانيين أو لأغراض اقتصادية.." (١)

"ناقدا للأوضاع والاجتماعات والسياسية، أو عالما متضلعا بمسائل الدين أو اللغة، لكنه في كل الأحوال تقريبا متسول ماكر مستهتر، ولوع بالملذات، يحتال للحصول على مال ممن يخدعهم، فضلا عن أنه أديب مجيد".

وفي المقامة أيضا وصف للعادات والتقاليد السائدة حينذاك في الطبقتين الدنيا والوسطى، وقد تأثر الأدب الفارسي بالمقامات متمثلا في القاضي "حميد الدين البلخي"، وإن لم يحتذ في مقاماته مقامات البديع والحريري احتذاء امسترة، وبخاصة في اشتمالها على المناظرات، واتسامها بالطابع الصوفي.

كما أثرت المقامات العربية في الآداب الأوربية أيضا على نحو واسع، إذ غزت قصة "الشطار" الإسبانية سواء من ناحية الفن أو من ناحية الوزن نزعة الواقعية التي تسودها، ثم انتقل تأثيرها إلى سائر الآداب في القارة العجوز، فساعدت الكتاب على هجر قصص الرعاة لتحل محلها القصص التي تتناول العادات والتقاليد، وتنحو نحو الواقعية والقضايا الاجتماعية.

وفي هذا السياق يحسن أن نورد ما كتبه "صلاح الدين الصفدي" في كتابه (نصرة الثائر على المثل السائر) عن مقامات الحريري إذ قال: "ويحكى أن الفرنج يقرؤونها على ملوكهم بلسانهم، ويصورونها ويتنادمون بحكاياتها". وما ذاك إلا أن هذا الكتاب أحد مظاهر تلك الحكايات المضحكة، والوقائع التي إذا شرع الإنسان في الوقوف عليها تطلعت نفسه إلى ما تنتهي إليه، وتشوقت نفسه إلى الوقوف على آخر تلك القصة، هذا إلى ما فيها من الحكم والأمثال التي تشاكل كتاب (كليلة ودمنة) وإلى ما فيها من أنواع الأدب، وفنونه المختلفة وأساليبه المتنوعة.

وبالنسبة إلى التشابه القوي الحاصل بين "رسالة الغفران" للمعري و"الكوميديا الإلهية" للشاعر الإيطالي " دانتي أليجيري" ذلك العملين الذي يصور كل منهما رحلة إلى العالم الآخر؛ فإن الدكتور "محمد غنيمي هلال" يعزوه إلى تأثر دانتي." (٢)

"وكان زعيم هذا الاتجاه الشاعر الألماني جوته، الذي عد نفسه نموذجا تتجمع فيه صفة العالمية؛ فلقد كان مطلعا على الآداب الأوربية، متمثلا قيمها واتجاهاتها، وغض بصره إلى خارج الحدود الأوربية الضيقة المضطربة؛ فوجد في الآداب الشرقية الإسلامية عاملا رحبا لا نهائيا من الطهر والطمأنينة، بدا له وكأنه قبس من نور النبوة، كما وجد منعا صافيا من الإبداع والإلهام المتجدد، عبر عنه بوضوح في ديوان سماه "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي". وكتب في مقدمته: هذه باقة من القصائد يرسلها الغرب إلى الشرق. ويتبين من هذا الديوان أن الغرب قد ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة، فتطلع إلى الاقتباس من صدر الشرق.

وقد استطاع جوته بثقافته العميقة الواسعة، ومكانته البارزة، وقدرته الفذة على الإبداع، أن يجعل فكرة التواصل بين الآداب

---

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر شوقي ضيف ص/١٧٤

(٢) الأدب المقارن – جامعة المدينة (بكالوريوس) جامعة المدينة العالمية ص/١٠٦

الأوربية خاصة، والآداب كلها بعامة تستقر في الأذهان، وتصبح من الأمور المسلمة التي لا تقبل الجدل، على الرغم من طغيان العصبية القومية في أوربا.

وهكذا بدت دعوة الأدب العالمي، وكأنها كانت بمثابة تمهيد طبعي لنشوء فكرة الأدب المقارن، كما جاء في كلام الدكتور محمد سعيد جمال الدين في كتابه (الأدب المقارن دراسات تطبيقية في الأدبين العربي والفارسي).

ويمثل الأديب الألماني "يوهان فلفجان جوته" حالة ساطعة في ميدان الأدب المقارن، إذ يكثر لديه التأثر بالشعر العربي، **والاحتذاء** بالإسلام عموما، والقرآن العربي، والنبي محمد على وجه الخصوص، فضلا عن إعجابه بحافظ الشيرازي، واستحضاره إياه استحضارا قويا في أشعاره، نصوصا من إبداعه، ووقائع من حياته.." (١)

"عقبي حالهم وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين

[سورة يونس، الآية: ١٠] وقال تعالى بين أحوالهم قبل ذلك: فو ربك لنحشرنهم والشياطين

[سورة مريم، الآية: ٦٧] إلى ونذر الظالمين فيها جثيا

[سورة مريم، الآية: ٧٢] فعلى هذا الذي بنينا الكلام عليه قدر الله نعمه على الجن والإنس في دنياهم، وأخراهم، ثم قال: يأيها تكذبون وكل ما تتصرفون فيه من حياة وممات ونعمة ونقمة وتيسير وتعسير، وتقريب وتبعيد آثار إحساني فيها ناطقة وأعلام آلائي فيها سنة واضحة وهذا بمن الله ظاهر.

ومنه قوله تعالى: إن في خلق السماوات والأرض

[سورة البقرة، الآية: ١٦٤] إلى لقوم يعقلون

[سورة البقرة، الآية: ١٦٤] الخلق هو الاحداث على تقدير من غير **احتذاء** مثال ولذلك لا يجوز إطلاقه إلا في صفة الله تعالى لأنه لا أحد جميع أفعاله على ترتيب من غير **احتذاء** أمثال إلا الله وإنما جمع السماوات، ووحد الأرض لأن الأرضين لتشاكلها تشبه الجنس، والواحد كالرجل، والماء الذي لا يجوز جمعه إلا أن يراد الاختلاف، وليس يجري السماوات مجرى الجنس المتفق لأنه دبر في كل سماء أمرها بالتدبير الذي هو حقها قوله تعالى: واختلاف الليل والنهار

[سورة البقرة، الآية: ١٦٤] يجوز أن يكون من الخلاف كالسواد والبياض لأن أحدهما لا يسد مسد الآخر في الأحوال. ويجوز أن يكون من الخلف لأن كل واحد منهما يخلف صاحبه على طريق المعاقبة والنهار في اللغة يفيد الاتساع أيضا، ويقال: انهرت العنق إذ أوسعته، وذكر الله تعالى هذه الآيات مجموعة معظما شأنها ليصرف بكريم عطفه وحسن نظره أوهام المخاطبين بها إليها، وإلى النظر في تراكيبها وابتداع خلقها مدرجا إلى الاستدلال بها على خالق لا يشبه الأشياء ولا يشبه من جهة أنه لا يقدر على خلق الأجسام إلا القديم الذي ليس بجسم ولا عرض، إذ جميع ذلك محدث ولا بد له من محدث لاستحالة التسلسل، فتقديم السماوات والأرضين في الذكر لأنها المعظم في المشاهدات والأصل وما عداها تبع لها، ولتكون الحواس إلى تمييزها أسرع، والأذهان إلى تبحثها أميل، والنفوس في الكشف عن سرائرها أرغب، والعقول عنها أفهم، واختلاف الليل والنهار يدل على عالم مدبر لأنه متقن في الصنع محكم في التدبر قريب التحول بعيد التأخر، فهو أبلغ أداء وأبين

(١) الأدب المقارن – جامعة المدينة (بكالوريوس) جامعة المدينة العالمية ص/٢٧٤

مأخذا، وأفصح برهانا، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس
[سورة البقرة، الآية: ١٦٤] لأنه فعل منعم عالم بما يكون قبل أن يكون هيأ الله لمنافع الناس ومن جرى مجراهم لكي يفكروا، مع كثرة بلواهم بها، ومع تعذر فعل مثلها عليهم منها وليعلموا بمواقع حاجاتهم وتيسر مرافقهم بها أن الله لهو الحكيم الرؤوف المحدث لهم، والمنشئ والمصرف والمسخر.
فأما الماء المنزل من السماء، فيدل على الرازق المنعم المبدع لما شاء لا يعجزه شيء." (١)
"وتنميقه إلى غير ذلك من شتى الآراء التي كتبها الجاحظ مستقلا بالتفكير فيها.
وإذا كان للجاحظ فخر التلمذة والرواية -في كتابه- عن شيوخ العربية وأدبائها كالأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وابن سلام وأبي العاصي، وكإبراهيم بن السندي وعبد الكريم بن روح الغفاري ومحمد بن بشير الشاعر، وكثمامة والنظام، وسوى هؤلاء وهؤلاء، فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه وعلى كتابه "البيان".
فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ تبع في كتابه "الشعر والشعراء" الجاحظ في مذهبه الأدبي من إيثار الطبع والرونق والماء والبعد عن التكلف والاستكراه والتعقيد.
ومؤلف نقد النثر يبدو في كتابه أثر الجاحظ، وهو وإن كان نقد "بيان" الجاحظ في أول كتابه إلا أنه قد تأثر به إلى حد كبير، فكلامه على أنواع البيان ونظره إليه نظرة واسعة أعم من البيان بالعبارة هو صنيع الجاحظ في كتابه، ويتكلم على اختيار مواقع الكلام وأوقاته ومناسبته للسامعين ومطابقة الكلام للمقام١ وتلك آراء الجاحظ، ويرى أن اللحن يستحسن من الجواري وأن من الصواب معرفة أوقات الكلام والسكوت وأقدار الألفاظ والمعاني بأنه يلبس المعنى ما يليق به من اللفظ، كما يرى أن من أوصاف البلاغة أن يتساوى فيها المعنى واللفظ، فلا يكون اللفظ إلى القلب أسبق من المعنى ولا المعنى أسبق من اللفظ، وتلك كلها آراء الجاحظ، إلى غير ذلك من كثير من مظاهر التأثر **والاحتذاء**.
وكذلك دعا الآمدي إلى المذهب الأدبي الذي دعا إليه الجاحظ في كتابه البيان.

---

١ ٩٦ نقد النثر.." (٢)
"٢- وذكر الآمدي أبا تمام وإفساده لشعره بالبديع نقلا عن كتاب ابن المعتز١.
٣- ويشيد بفضل ابن المعتز وعلمه بالشعر وحسن اختياراته في كتاب البديع٢.
٤- ويذكر الآمدي مثلا كثيرة للتجنيس بعضها مأخوذ من كتاب البديع، وصرح بذلك الآمدي أيضا٣، وينقد الآمدي قدامة في مخالفته لابن المعتز في تسميته الطباق تكافؤا٤، إلى غير ذلك من مظاهر التأثر **والاحتذاء**.
ابن المعتز وصاحب العمدة:

---

(١) الأزمنة والأمكنة المرزوقي ص/٥٨
(٢) الإيضاح في علوم البلاغة القزويني ، جلال الدين ١/١٥٥

وابن رشيق في عمدته يرجع إلى البديع ويحتذيه:

١- فهو يشير إلى الكتاب وينوه به٥.

٢- وينقل عنه تعريف ابن المعتز للتجنيس ويقول: وهو أول من نحا هذا النحو وجمعه٦.

٣- وباب التصدير "رد العجز على الصدر" في العمدة٧ تأثر فيه بابن المعتز إلى حد كبير، ونقل فيه من البديع وأشار إليه٨.

---

١ ٨، ٩، ٦١ الموازنة.

٢ راجع ١٤ موازنة في شرح بيت البحتري "تخفي الزجاجة لونها"، وهو في البديع "ص١٢٩".

٣ ١٢١، ١٢٢ الموازنة.

٤ راجع ١٢٤ الموازنة.

٥ ٢٣٥ جـ١ وما بعدها العمدة.

٦ ١٩٩/ ١ العمدة.

٧ ٣-٥ العمدة.

٨ ٥٠٤/ ٢ العمدة.." (١)

"همهم إلى الصياغة ليلبسوها أبهى حلل البيان، وأسمى صفات الكلام، وذلك لا يتأتى إلا بالزخرف والزينة والبهرج والتوليد في المعاني، فكلفوا بها وتعمدوها.

وقصدوا إلى الشعر القديم يلتمسون منه هذه الألوان، ويتفننون فيها، فاجتمع لهم منها الكثير من طباق إلى جناس إلى تورية إلى مشاكلة وغير ذلك، وأطلقوا على كل ذلك اسم البديع، وشتان بين هذه الألوان في شعر الأقدمين وشعر المحدثين، فقد جاءت في شعر الأقدمين تساير الطبع وتقع موقعها دون قصد لها أو تكلف، بينما جاءت في شعر المحدثين عن تعمد وقصد وتكلف.

قال صاحب (الوساطة): فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف، تكلفوا **الاحتذاء** عليها فسموه البديع، فمن محسن ومسيء، ومحمود ومذموم، ومقتصد ومفرط، وأصبح البديع بذلك صنعة لها روادها من أمثال بشار بن برد ومسلم بن الوليد والعتابي ومنصور النمري وأبي نواس وأبي تمام والبحتري وعبد الله بن المعتز، فقد كان الواحد من هؤلاء يقصد إلى تلك الأصباغ ويكثر منها في شعره، ولكنهم لم يكونوا سواء في تلك الصنعة من حيث الإقلال والإكثار والتسهيل والتوعر والطابع والاتجاه، فمنصور النمري من شعراء البديع استقى من بديع العتابي وذهب مذهبه وأربى عليه في المبالغة.

قال صاحب (الأغاني): كان منصور شاعرا من شعراء الدولة العباسية من أهل الجزيرة، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابي

---

(١) البديع في البديع لابن المعتز ابن المعتز ص/٤٨

وراويته، وعنه أخذ ومن بحره استقى ومن مذهبه تشبه، فمن طباقه ومبالغاته قوله يمدح الرشيد:

إذا رفعت أمرا فالله يرفعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع

من لم يكن بأمين الله معتصما ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع." (١)

"ومن بعده جاء السكاكي في غرة مصنفاته (مفتاح العلوم) وقسمه إلى ثلاثة أقسام أساسية، خص القسم الثالث منها بعلم المعاني والبيان، ثم ألحق بهما نظرة في الفصاحة والبلاغة ودراسة للمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية. ومضى الخطيب القزويني بعده في كتاب (الإيضاح) يعرض علم البديع بمحسناته عرضا أكثر تفصيلا بالطبع من عرضه له في (تلخيص المفتاح) ومع هذا فهو خير من خلف السكاكي في دائرة تلخيص قواعد البلاغة وتقعيدها، وسرعان ما رأينا من خلفوه يعكفون على تلخيصه بالشرح مرارا كأنهم رأوا فيه خير ما يجمع تلك القواعد.

نخلص مما سبق إلى أن ألوان البديع كانت تأتي في أشعار العرب القدامى عفو الخاطر، وأن من وليهم من نحو بشار ومسلم بن الوليد والعتابي وأبي نواس وأبي تمام وابن المعتز وأضرابهم؛ رأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن وتميزها، فتكلفوا **الاحتذاء** بها، حتى أضحى البديع صنعة لها روادها، وراح المولعون بهذه الأصباغ وعلى رأسهم الخليفة الشاعر عبد الله بن المعتز، يسجل هذه الألوان التي كثرت في الشعر، واستطاع أن يحولها إلى قواعد وأصول.

وقد تبعه في ذلك قدامة بن جعفر، وأبو هلال العسكري، وابن رشيق، ومن سموا بأصحاب البديعيات، وهم الذين كانوا ينظمون أبياتا في مدح الرسول –صلى الله عليه وسلم– يضمنونها هذه الأصباغ، وكثرت هذه الأصباغ كثرة فاحشة ومتكلفة، حتى أوصلها بعضهم إلى مائة وخمسين صبغا بديعيا، وقد كان كثرتها سببا في إسفافها وتجريدها –كما سبق أن ذكرنا– من الرواء والروعة التي كانت تتسم به في أشعار القدامى، وما ذلك إلا لأنها أضحت مؤخرا تقصد لذاتها وتأتي بطريق التعمل والتكلف.

والسؤال الأن: ماذا يعني علم البديع في اصطلاح البلاغيين؟ وما هي أهم الجهود التي بذلت حتى استقام عود هذا العلم، واستوى على سوقه؟

نأمل منكم الإجابة عن هذين السؤالين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.." (٢)

"حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه، وأخصهم به. فساس الرعية سياسة أردشير بن بابك في الفحص عن أسرارها خاصة.

ثم اقتفى معاوية فعله، وطلب أثره، فانتظم له أمره، وطالت له مدته.

وكذا كان زياد ابن أبيه يحتذي فعل معاوية، **كاحتذاء** معاوية فعل عمر.

وفيما يحكى عنه أن رجلا كلمه في حاجة له، فتعرف إليه، وهو يظن أنه، لا يعرفه، فقال: أصلح الله الأمير! أنا فلان بن

---

(١) البلاغة ١ – البيان والبديع – جامعة المدينة جامعة المدينة العالمية ص/٣٠٢

(٢) البلاغة ١ – البيان والبديع – جامعة المدينة جامعة المدينة العالمية ص/٣١٦

فلان.

فتبسم زياد وقال: تتعرف إلي، وأنا أعرف منك بأبيك؟ والله إني لأعرفك وأعرف أباك وجدك وأمك وجدتك، وأعرف هذا البرد الذي عليك، وهو لفلان بن فلان.

فبهت الرجل وأرعب حتى أرعد، وكاد يغشى عليه.

وعلى هذا كان عبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف.

ثم لم يكن بعد هؤلاء أحد في مثل هذه السياسة حتى ملك المنصور. فكان أكثر الأمور عنده معرفة أحوال الناس، حتى عرف الولي من العدو، والمداجي من المسالم. فساس الرعية ولبسها، وهو من معرفتها على مثل وضح النهار.." (١)

"وعفوه، ثنيت وجهي إلى **احتذاء** مراسمه، وامتثال أوامره، فيما عقده من العهد للملك القائم بعده، الساد ثلمة مكانه، الوارث شرف منزلته، المستقر في علياء رتبته، مولانا صمصام الدولة وشمس الملة، مستمليا فيما أخذت وتركت، وأوردت وأصدرت، من سديد آرائه، ومستضيئا بوميض لألائه، وضاربا وجوه النوائب بيمن طائره، وسعادة طالعه، إلى أن تجلت غماؤها، وأسمح إباؤها، وتذللت صعابها، وتفللت أنيابها، وضربت الدولة بجرانها، واستعلت بأركانها، واطمأنت على مهادها، وطرف الله عين شنائها وحسادها؛ هذا على شوائب كانت تعترض ثم تقلع، وتطل ثم لا تقشع، لا تخلو الدول المتجددة من اعتنان أمثالها وأشكالها، وأحسن بها مع حسن عقباها ومآلها. فلو وصفت لسيدنا ما مر بي في هذه الأحوال من إصلاح الفاسد، وتقويم المائد، وقبض المنبسط، وإرضاء المتسخط، وتألف المخالف، واستقادة المتجانف، ومقابلة كل داء بدوائه، وتعديل كل أمر خيف من اضطرابه والتوائه، لطال الخطب واتصل القول. وأنا أحمد الله على أن جمع بيننا فيما تولانا به من المعونة التي قضينا بها حق موالينا الأمراء السادة، صلوات الله على من مضى منهم وسلف، وأطال الله بقاء من قام بعدهم وخلف، وإياه أسأل إدامتهم والزيادة فيها، ليشار إلينا في المستقلين بحمل أياديهم، كما يشار إليهم في الإنعام على مواليهم، بمنه وطوله.

وأما ما أورده سيدنا الصاحب في الحض على التآلف والتعطف، والنهي عن التقاطع والتدابر، فمثله- ولا مثل له- قال ذلك وأرشد إليه، وأشار به وحث عليه. وحقيق علينا فيما نلتزمه من شكر النعم التي خصتنا خصائصها، وتظاهرت علينا ملابسها، أن نكرر على أسماع موالينا ما يعود عليهم وعلينا في ظلهم، باجتماع الشمل، واتصال الحبل، والتعاضد الكابت لأعدائهم، الزائد في عليائهم. وبالله ما أجد عند مولانا صمصام الدولة مستزادا في ذلك، ولا موضعا لبعث باعث عليه، إذ كان يرجع إلى أكرم طبيعة، وأشرف غريزة، وأفخر نجار، وأثقب رأي وأصح اختيار، ويرى." (٢)

"رقم الفصل عند ابن الكتاني – رقمه عند أبي عون

١ ٢ –

٢ ٣ –

---

(١) التاج في أخلاق الملوك الجاحظ ص/١٦٩

(٢) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ٦/٣٥٣

٤ ٩ –

٨ ٨٥ –

٩ ٣٧ –

١٠ ٥٧ –

٢٠ ١٧ –

٢٣ ١٤ –

٢٥ ٢١ –

٣٤ ١٠ –

٣٦ ٣٨ –

٣٩ ١١ –

٥٠ ٠٥ –

والباب الأخير عند المؤلف الأندلسي يقابل الباب الأخير (رقم: ٩١) عند ابن أبي عون، وهذا وحده يدل على الاحتذاء، لأن الباب نفسه باب تحشد فيه تشبيهات في موضوعات لا يجمع بينها ربط] .

ومهما يكن من شيء فإن المؤلف قد حاول أن يعرض المجالات التي اتصلت بها ملكة التصوير عند الأندلسيين سواء أخضعت لترتيب موضوعي أو لم تخضع، وأنه قد أطلعنا من خلال هذه المختارات على مبلغ ما بذله الشعر الأندلسي من عناية بالصورة في دور مبكر من تاريخه، حتى أصبح طلب الصورة فيه غاية كبرى بل أصبح بعد زمن أكبر غاية، ومن الطبيعي أن يكون هذا الكتاب مصدرا جديدا؟ بل أوسع مصدر حتى الآن؟ لدراسة الشعر الأندلسي حتى أواخر القرن الرابع، ومن الطبيعي أن يكون لدى دارسي الأدب الأندلسي وثيقة جديدة ذات دلالة واضحة لخصائص لم تكن قبل ذلك واضحة في ذلك الأدب.." (١)

"يكون جماما لبعض، ولا يزال نشاطه زائدا. ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية، ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب؛ ولعله أن يكون أثقل، والملال إليه أسرع، حتى يفضي به إلى مزح وفكاهة، وإلى سخف وخرافة، ولست أراه سخفا، إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء، وآداب العلماء.

٦٢–[مخاطبة القرآن للعرب وبني إسرائيل]

ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطا، وزاد في الكلام. فأصوب العمل اتباع آثار العلماء، والاحتذاء على مثال القدماء، والأخذ بما عليه الجماعة.

---

(١) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس محمد بن الكتاني الطبيب ص/١٧

٦٣-[شعر في صفة الكتب]

قال ابن يسير في صفة الكتب، في كلمة له «١» : [من البسيط]

١- أقبلت أهرب لا آلو مباعدة ... في الأرض منهم فلم يحصني الهرب

٢- بقصر أوس فما والت خنادقه ... ولا النواويس فالماخور فالخرب

٣- فأيما موئل منها اعتصمت به ... فمن ورائي حثيثا منهم الطلب

٤- لما رأيت بأني لست معجزهم ... فوتا ولا هربا، قربت أحتجب

٥- فصرت في البيت مسرورا بهم جذلا ... جار البراءة لا شكوى ولا شغب

٦- فردا يحدثني الموتى وتنطق لي ... عن علم ما غاب عني منهم الكتب

٧- هم مؤنسون وألاف غنيت بهم ... فليس لي في أنيس غيرهم أرب

٨- لله من جلساء لا جليسهم ... ولا عشيرهم للسوء مرتقب

٩- لا بادرات الأذى يخشى رفيقهم ... ولا يلاقيه منهم منطق ذرب

١٠- أبقوا لنا حكما تبقى منافعها ... أخرى الليالي على الأيام وانشعبوا

١١- فأيما آدب منهم مددت يدي ... إليه فهو قريب من يدي كثب." (١)

"ولجرير في هجاء الفرزدق:

تسيل عليهم شعب المخازي ... وهم كانوا لسوأتها قرار

وللفرزدق في هجاء جرير:

أنتم قرارة كل معدن سوأة ... ولكل سائلة تسيل قرار

وقد أخذاه جميعا من أعشى باهلة في هجاء الرقاد بن عمرو الجعدي:

بنو حصن قرارة كل لؤم ... كذاك لكل سائلة قرار

وأخذ الفرزدق قوله:

جرد القياد وفي الطراد كأنها ... عقبان يوم تغيم وطلال

وأخذ قوله:

وذات حليل أنكحتها رماحنا ... حلالا لمن يبني بها لم تطلق

من سليك بن السلكة في قوله:

وكم أيم قد أنكحتها رماحنا ... وأخرى على عم وخال تلهف

ثم قال: وهذا نبذ يسير من شيء كثير لا يأتي عليه الجمع والاستقصاء، فضلا عما تساعد به القريحة ويمليه الحفظ للمذاكرة. فاشرأب الوزير إلى كلامه، وأصغت الجماعة إلى قوله: وأظهرت استحسانا لا يستحقه ما أتى به. فقلت له: أما قولك إن

---

(١) الحيوان الجاحظ ٦٤/١

المعنى يعتلج في الصدر فيخطر للمتقدم تارة وللمتأخر أخرى، وإن الألفاظ مشتركة، فليس الأمر كما تخيلته، ولا الكلام كله مشترك، ولا أن الأول ليس بأولى به من الآخر. ولو كان كذلك لسقطت فضيلة السابق، ولبطلت مهلة المتقدم ولما قدمت شعراء الجاهلية على شعراء الإسلام، وقدم الصدر الأول من الإسلاميين على الصدر الأول من المحدثين ... وإنما حكم لهم بالفضل، وسلم إليهم خصله من أجل ما ابتدعوه من المعاني، وسبقوا إليه من الاستعارات، وابتكروه من التشبيهات الواقعة والأمثال الشاردة، وذللوه من طرق الشعر الحزنة ولما تغايروا بالسرق والاجتلاب والنقل والاجتذاب. ألا ترى إلى قول قراد ابن حنش المري هاجيا بني عوف:

إذا ما انتدوا أقعوا بيوتهم ... جلوس إماء الحي حول المجازر

وإن نطقوا قالوا بما قيل قبلهم ... وإن وردوا حلو خلال الصوادر

وعير جرير الفرزدق باجتلابه فقال:

ستعلم من يكون أبوه قينا ... ومن عرفت قصائده اجتلابا

ولما قال كعب:

فمن للقوافي شانها من يحوكها ... إذا ما مضى كعب وفوز جرول

أعترضه مزرد بن ضرار، وأخو الشماخ، فقال:

مررت على كعب فخلت أوبدي ... أوابد تعلوا فوق كعب وجرول

فهل خضت بحرا قصر الناس دونه ... من الشعر أم هل قلت ما لم تقول

وقال ابن هرمة يذكر قوما استرقوا شعره، واستعاروا معانيه:

أغذو تلادا من الأشار أصلحها ... صلاح ذي الحزم للحاجات والرتل

احذو قصائد للراوين باقية ... كأنها بينهم موشية الحلل

أما نسيبا وإما مدح ذي فخر ... يبقى وإما ادخارا من ذوي خطل

حتى إذا امتلأت أسماعهم عجبا ... واستوقفت في قلوب القوم كالعسل

أهووا إليها لغوص في مسارحها ... لم يقرعوا أمهات الشول للحبل

فاستطلعوا عقلا لا يعقلون بها ... وأوضعوا قعد المجموع في الهملش

وما أشاركهم في طرق فحلهم ... ولا بسهل أراعيهم ولا جبل

ما إن أزال أرى وسمي فأعرفه ... في ذود آخر موسوما على قبل

وما وسمت قلاصا وهي راتعة ... حتى أتت رغم الاقياد والعقل

وما قولك: من هذا الذي من التباع **والاحتذاء**، وسلوك الطريق التي تقدم إليها غيره من الشعراء؛ فلعمري إن الأمر على ما ذكرته، إلا أنه لا يحمد من الكلام ما كان غابا، ولا المعاني ما كان مكررا مرددا. فلا يتسمح الشاعر بأن يكون جمهور شعره عند التصفح مسترقا ملصقا، ومجموعا ملفقا، ولا أن يكثر الاعتماد في شعره، ويتناصر السرق في كلامه. ومن السبيل

المحتذي أن يأخذ المعنى دون اللفظ، ثم أن يطويه أن كان مكشوفا، ويكشفه إن كان مستورا، ويحسن العبارة عنه، ويختار الوزن العذب له، حتى يكون بالأسماع عبقا وبالقلوب علقا. ألا ترى إلى قول الأعشى:

وذرنا وقوما إن هم عمدوا لنا ... أبا ثابت واقعد فإنك طاعم

فأخذه الحطيئة، فأحسن العبارة عنه، واستوفى المعنى فيه، فصار أحق به من المخترع له بقوله:." (١)

"أنا والله أصلح للمعاصي ... إذا أهل الذنوب تقارفوها

فانظر إلى لطفه في الأخذ، وحسن تأتيه للاتباع **والاحتذاء**. ثم قلت ولم أجدهم يحمدون إكثار الشاعر من الأتباع، وإكثاره من الأخذ والرق، فإن ذلك منه يدلب على ضيق المجم، على الفقر والاختلال، وعلى قصور الخاطر وبلادة الفكر وجبن القريحة. فأعجب المهلبي بما أوردته، ووكد وصاة من كان نصبه من كتابه لإثبات ما جرى وضبطه وتحصيله واستيفائه. وقال: إنما نأتيكم الفينة بعد الفينة، فإذا أتيناكم فأحسنوا القرى. ونهض مغضبا، فأمر المهلبي برده فرد مكرها، ول يطل الجلوس ونهض. فلما انصرف أقبل علي المهلبي وقال: أريد أن تفاوضه الكلام في شعر أبي تمام والبحتري، وتلبو ما عنده فيهما. ومضى أسبوع ولم يستدعه ولم يحضر مبتدئا، ثم حضر واعتذر من تأخره، وقد كان أبو علي الأنباري جر له حبال الطمع، ووعده عن المهبلي بما كان بعيدا من الوصول إليه، لسوء رأي المهلبي فيه. فأومأ إلي أن جاره ما وسمت لك مجاراته. فسألته إنشاد كلمته التي أولها:

) واحر قلباه ممن قلبه شبم ... ومن بحالي وجسمي عنده سقم (

فتلكأ يسيرا، ثم ابتدأ فأنشدها إلى أن انتهى إلى قوله:

) والخيل والليل والبيداء تعرفني ... والحرب والضرب والقرطاس والقلم (

فاستحسنت الجماعة هذا البيت استحسانا أفرطت فيه. فلت: إنما أخذه من إماميه. فقال: ومن إماماي اللذان استلحقت شعرهما، وهتكت حريمهما، وأنحيت عليهما، وتناكرت معرفتهما؟ قلت: أبو تمام والبحتري، فأما البحتري فقال:

يا خليلي بالسواجير من أد ... بن معن وبحتر بن عتود

اطلبا ثالثا سواي فإني ... رابع العيس والدجى والبيد

وأما أبو تمام فقال، وعليه اعتمد البحتري:

العيس والهم والليل التمام معا ... ثلاثة أبدا يقرن في قرن

وأبو تمام احتذى فيه قول الشنفرى:

ولي دونكم أهلون سيد عملس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع ... وأبيض إصليت وصفراء عيطل

وإلى هذين البيتين نظر ذو الرمة في قوله:

وليل كجلباب العروس أدرعته ... بأربعة والشخص في العين واحد

---

(١) الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره ابن المظفر الحاتمي ص/٤٢

أصم علافي وأبيض صارم ... وأعيس مهري وأروع ماجد

فقال بعض لحاضرين، وأحسبه الأنباري: ما يشبه الليل من جلباب العروي؛ فأمسكت. فقال المهلبي: ما تقول؟ فقلت له: لا يشبه الليل من جلباب العروس شيئا إلا طوله وسبوغه. فقال المهلبي فما يريد بقوله:

بأربعة والشخص في العين واحد

فقلت: إنه يريد أنه نظر إلى هذه الجملة مجتمعة في ظلمة الليل، فتخيلها شخصا واحدا. فقرع سمعه من كلامي ما أيقظ حميته وهز للشغب عزيمته وحرك سورته فتمثل بقول الشاعر:

وقد تذكر الأشياء بالشيء بعدها ... ويرجع للود العدو المباين

وقال: أما أبو تمامكم هذا الذي يقول:

تجرع أسى قد أقفر الجرع الفرد ... ودع حسي عين يحتلب ماءه الوجد

فأحال أقبح إحالة، واستعار أبع استعارة، بتصييره للعين حسيا، والأحساء توصف بقلة الماء، ومن شأن الدموع أن توصف بالغزارة من ذوي الوجد والصبابة، فكان الجماعة أصاخت إلى هذا القول. فقلت: ليس الأمر على ما تختليه، من أجل أن الحسي الرمل الذي يكون تحته حجر صلب يرد الماء، فشرب الرمل الماء إلى أن ينتهي إلى ذلك الحجر، فإذا احتاجوا إلى الماء احتفروا وأخرجوا شيئا بعد شيء. هذا قول صاحب " العين " وجماعة من أهل العلم. فاستعار أبو تمام للعين حسيا، من أجل أن الدموع تخرج شيئا بعد شيء، وهذه استعارة حقيقة لا استعارة مبالغة. فأمسك هنيهة ثم قال: أبو تمام القائل في هذه القافية:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه ... بكفيك ما ماريت في أنه برد

فهل امتدح أحد فبله أحدا برقة الحلم، ووصفه بالركانة والثخانة أولى، ألا ترى إلى قول عدي بن الرقاع:

أبت لكم مواطن طيبات ... وأحلام لكم تزن الجبالا." (١)

"وكان سليمان بن قتة، مولى بني تميم بن مرة القرشيين، صديقا لأسد، فرثاه بدوره رثاء حارا تحرق فيه عليه، واستسقى لقبره، وأشاد به. فقد كان أسد في رأيه حاميا لحقيقتهم، قائما بأمورهم، حاملا لهمومهم، ساعيا لانتزاع حقوقهم، آخذا بثاراتهم، وكان فارسهم المشهور، الذي طالما حز بسيفه رؤوس أعدائهم حزا، وطعنهم برمحه طعنا، يقول:١:

سقى الله بلخا سهل بلخ وحزنها ... ومروي خراسان السحاب المجمما٢

وما بي لتسقاه ولكن حفرة ... بها غيبوا شلوا كريما وأعظما٣

مراجم أقوام ومردى عظيمة ... وطلاب أوتار عفرنا عثمثما٤

لقد كان يعطي السيف في الروع حقه ... ويروي السنان الزاغبي المقوما٥

وتتضح من النصوص السابقة ظاهرتان: الأولى أن الشعراء العرب بخراسان، لم يبتدعوا معاني في الرثاء، على كثرة ما نظموا فيه، ولم يعدلوا في أسلوبه أي تعديل، وإنما احتذوا فيه بالمرثية الجاهلية أدق **الاحتذاء**، بحيث أبدأوا وأعادوا في معانيها

(١) الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره ابن المظفر الحاتمي ص/٤٤

وقوالبها التعبيرية، وهم يندبون أو يؤبنون أو يعزون٦.

والظاهرة الثانية أنهم لم يرثوا إلا أولى القربى من الإخوة والأولاد والولاة، وأنهم لم يرثوا إلا العمال الذين كانوا يحابونهم، ويمالئون قبائلهم. وذلك بين في رثاء الشمردل بن شريك التميمي لإخوته قدامة، ووائل، وحكم، وفي رثاء موسى بن عبد الله بن خازم السلمي لأخيه محمد، وفي رثاء نصر بن سيار لابنه تميم، وفي رثاء عبد الرحمن بن جمانة الباهلي لقتيبة بن مسلم، وفي رثاء نهار بن توسعة البكري

---

١ الطبري ٩: ١٦٣٩، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢: ٤٦٤.

٢ المجمم: الكثير.

٣ الشلو: الجلد أو الجسد.

٤ الرجم: القتل، وراجم عن قومه: ناضل عنهم، والعفرني: الداهية النافذ في الأمر. المبالغ فيه مع خبث.

والعثمثم: الأسد القوي الطويل في غلظ.

٥ الزاعبي: الرمح اللين إذا هز تدافع كله كأن آخره يجري في مقدمه.

٦ الرثاء للدكتور شوقي ضيف ص: ١٢، ٥٤، ٨٦.." (١)

"الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير (٦) وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور [الحج: ٥- ٧] .

فليوقظ الناظر فهمه، وليتأمل ما أودع فى هذه الآية من المحاسن الرائقة والمعانى الفائقة مع اختصاصها بالترتيب الفائق وتنزيلها على النظام المعجب الرائق الذى يسحر الألباب رقة ولطافة. ويدهش الأفهام عذوبة وسلاسة، فصدر الآية بالنداء، والتنبيه، من أجل الإيقاظ، وجاء بصيغة الشرط على جهة الملاطفة فى الخطاب، وحقق اعتراض الريب والشك فى الأفئدة ليدفعه بالبرهان الواضح الجلى وضمنها برهانين.

البرهان الأول منها عجيب خلقة الإنسان وتنقلها فى هذه الأطوار السبعة، ترابا، ثم نطفة فى الرحم، ثم علقة، ثم مضغة، ثم الطفولة، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة والهرم، فقد أشار بهذا التدريج إلى عجيب القدرة، وإلى دقيق الحكمة على اختلاف هذه الأطوار، وتباين هذه المراتب فى الخلقة، ودلالتها، من وجهين، أحدهما أن كل من قدر على إحداث هذه الأمور وإبداعها من غير شىء فهو قادر لا محالة على إعادتها، لأن الإعادة مثل الإيجاد، ومن قدر على الشىء قدر على مثله لا محالة.

وثانيهما: أن الابتداء إيجاد من غير **احتذاء** على مثال سابق، والإعادة إيجاد مع سبق **الاحتذاء**، فمن هو قادر على الابتداء كان أولى أن يكون قادرا على الإعادة بطريق الأحق، ولهذا قال تعالى منبها على ذلك بقوله وهو أهون عليه

يشير إلى ما قلناه.

---

(١) الشعر في خراسان من الفتح إلى نهاية العصر الأموي حسين عطوان ص/٢٠٩

البرهان الثانى حال الأرض بكونها جرزا ثم بإنزال الماء عليها، ثم بحصول هذه الأزواج النباتية المختلفة، واهتزازها بالأزهار الغضة والأكمام المنفتحة، بحيث لا يمكن حصرها ولا يتناهى عدها، فهذان برهانان قد اشتملا على ما عدد الله تعالى فيهما من عجائب القدرة، وإتقانات الحكمة، وساقها على هذا النظام البديع، والاختصار المعجز البليغ الذى يفحم كل ناطق، ويروق كل سامع، ثم إنه عز سلطانه، لما فرغ من نظم هذه البراهين الباهرة وترتيب هذه الأدلة القاهرة، عقبها بذكر ثمرتها، وتقرير مدلولها، وإنتاج فائدتها فقال ذلك

يشير به إلى ما سبق من تقدير الأدلة وانتظامها: بأن الله هو الحق

يعنى الموجود الثابت، يشير به إلى أنه موجد المكونات كلها المحصل لحقائقها وصفاتها نحو خلقة الإنسان وأحوال الأرض، وأنه يحي الموتى

يشير به إما إلى إحياء النفوس بعد أن كانت ترابا ونطفا، وعلقا ومضغا، فى هذه الأطوار وإما إلى إحيآء الأرض بعد." (١)

"المرتبة الثالثة ما يكون واردا على جهة **الاحتذاء**

على مثال سابق، ومنوال متقدم، وهذا كالبخل فإنه ورد عنهم فيه أشياء كثيرة كلها دال على مقصود واحد فى الهجاء به وهذا كقول أبي نواس يصف بخيلا:

شرابك فى السراب إذا عطشنا ... وخيرك عند منقطع التراب

فما روحتنا لتذب عنا ... ولكن خفت مرزئة الذباب

ومن ذلك ما قاله بعض المغاربة يهجو إنسانا احترقت داره يقال له ابن طليل:

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا ... طوعا إلى الأقدار بالأقدار

ما أوقد ابن طليل قط بداره ... نارا وكان هلاكها بالنار

وكما قال بعض الشعراء فى ذم اللؤم والبخل:

زد رفعة وإن قيل أغضى ... ثم انخفض إن قيل أثرى

كالغصن يدنوا ما اكتسى ... ثمرا وينأى ما تعرى

ومما ولع به الشعراء وتهالكوا فى التعبير عن أحوال الطلول والرسوم وأحوال الديار، قال أبو الطيب المتنبى:

لك يا منازل فى القلوب منازل ... أقفرت أنت وهن منك أو اهل

فأخذ هذا المعنى أبو تمام وأجاد فيه كل الإجادة فقال:

عفت الرسوم وما عفت أحشاؤه ... من عهد شوق ما يحول فيذهب

فأخذه البحترى ونسج على منواله بقوله:

صوقفت وأحشائى منازل للأسى ... به وهو قفر قد تعفت منازله

وقال امرؤ القيس:

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المُؤَيَّد العلوي ٨٢/١

عوجوا على الطلل المحيل لعلنا ... نبكى الديار كما بكى ابن حذام

فابن حذام هذا هو أول من بكى على الديار فلهذا حذوا على حذوه، ووصفو الديار بأوصاف مختلفة كلها متفقة فى مقصود واحد، ولنقتصر على هذا القدر من تمهيد قاعدة هذا الفن،

ونشرع الآن فى شرح مقاصده

فلنذكر ما يتعلق بذكر علوم البيان من مواقع المجاز فى." (١)

"أخذه بعض الشعراء وزاد عليه فأجاد فيما قاله وأصاب فيه «أنت فى الجود أول وقضى الله أن لا يرى لك الدهر ثانى» .

فما ذكره من المعنى الجزل والمدح العالى ليس حاصلا فى بيت أبى الطيب، ولنقتصر على هذا القدر من السرقات الشعرية وبيان أمثلتها ففيه مقنع وكفاية فى التنبيه على ما وراءه من ذلك، فإنه باب واسع من الفنون الشعرية، وفيه أودية، وله شجون وفنون، وفيما أوردناه غنية، وبتمامه يتم الكلام على النمط الثانى من بيان أنواع الفصاحة المعنوية من أنواع البديع، وقد نجز الكلام على الباب الرابع الذى رسمناه فى علوم البديع وأصنافه، والله الموفق للصواب.

ولنختم كلامنا فى الباب الرابع الذى رسمناه لبيان أصناف البديع ومعرفة أسراره بذكر تنبيهات ثلاثة

هى لائقة ههنا حيث لم تذكر فى صدر الباب لبيان معنى البديع وتقرير أقسامه على جهة الإجمال وبيان مواقعه، فهذه تنبيهات لا غنى عن ذكرها لمن أراد الخوض فى علم البديع.

التنبيه الأول فى بيان معناه

واعلم أن لفظ البديع، فعيل بمعنى مفعول، كقولنا جريح وقتيل، أو فعيل بمعنى مفعل نحو حكيم بمعنى محكم وأنشد النحاة:

وقصيدة تأتى الملوك حكيمة ... قد قلتها ليقال من ذا قالها

وهو فى كلا وجهيه بمعنى مفعول، ولا يختلفان إلا فى أن أحدهما مأخوذ من الثلاثى المجرد فتقول بدع هذا يبدعه فهو بديع، أى مبدوع، والثانى مأخوذ من الثلاثى المزيد فتقول فيه أبدع هذا يبدعه فهو مبدع، والفاعل مبدع، قال الله تعالى: بديع السماوات والأرض

[البقرة: ١١٧] أى مبدعهما ومعنى البديع الموجد بالقدرة لا على جهة **الاحتذاء**، فالمبدىء والمبدع سيان فى أن كل واحد منهما حاصل من غير مثال سابق ولا **احتذاء** متقدم، وأما فى مصطلح علماء البلاغة فهو عبارة عن الكلام المؤلف على جهة الإسناد المجازى من حيث الاستعارة، ولنفسر مقصودنا بهذه القيود بمعونة الله، فقولنا عبارة عن الكلام، إعلام بأن البديع إنما هو خاص بالكلام دون سائر الأفعال كلها، فإنه لا مدخل له فيها، فلا يقال فى رشاقة القد وحسن الدل، إنه من البديع، فهو إنما يكون من عوارض الكلام لا غير، وقولنا «المؤلف» يحترز به عن الكلم المفردة بالإضافة إلى كل واحدة من أعدادها." (٢)

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المُؤَيَّد العلوي ١٠٢/١

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المُؤَيَّد العلوي ١١٥/٣

"بالنفس على وفق العلم من غير مخالفة، فمهما كان الجهل على الله تعالى محالا، كان الكذب عليه محالا، وهذا فاسد أيضا لأمرين، أما أولا فلأنهم ما أقاموا برهانا قاطعا على أن كل من استحال فى حقه الجهل فإنه يستحيل من جهته الكذب، وأن يكون مخبرا بالخبر النفسى على خلاف ما هو به، وهذه القضية غير معلومة بالضرورة، فلا بد فيها من إقامة الدلالة، وأما ثانيها فهب أنا سلمنا أنه يستحيل عليه الكذب فى الكلام القائم بنفسه، فلم لا يجوز أن يكون كاذبا فى الكلام الذى نسمعه ونقرؤه الذى بين أظهرنا، فهذان المسلكان هما العمدة لهم فى تقرير صدق الله تعالى، وقد عرفت ما فيهما من الفساد، وليس العجب من قدماء الأشعرية فى إيراد هذه الأمور الركيكة، وإنما العجب من ابن الخطيب فى إيراده لمثل ذلك مع أنه الرجل فيهم والمتولى على دقائق علم الكلام والمتبحر فى مغاصاته.

الجهة السادسة من الطعن على القرآن بأنه قد أتى بمثله

وحاصل هذه المقالة أن كل من قرأ سورة البقرة وجميع القرآن، فإنه قد أتى بمثله، وما هذا حاله فلا يكون معجزا، وإنما قلنا: إن كل من قرأه فقد أتى بمثله، لأنا نعلم بالضرورة أنه لا معنى للكلام إلا الأصوات المقطعة تقطيعا مخصوصا الموضوعة لإفادة معانيها، ونعلم بالضرورة أن الأصوات الحاصلة فى لهوات زيد غير الأصوات الحاصلة فى لهوات عمرو، وإذا تقرر ذلك حصل غرضنا من أن كل من قرأ القرآن فقد أتى بمثله فلا يكون معجزا بحال.

والجواب من وجهين، أما أولا فما هذا حاله من الكلام ركيك جدا، فإنا نعلم بالضرورة أن كل من أنشأ رسالة أو خطبة، أو قال قصيدة، أو غير ذلك من سائر الكلام، ثم أنشأها إنسان آخر فحفظها ورواها مرة أخرى فإنه لا تكون قراءته لتلك الرسائل، والقصائد، والخطب، إتيانا بما يعارضها، وإنما هى مضافة إلى قائلها، وما يكون من جهة القارىء فإنما يكون على جهة **الاحتذاء**، دون الابتداء والإنشاء، وهذا ظاهر لا يشك فيه أحد من النظار والفصحاء ثم إنهم يقولون للكلام إضافتان، فالإضافة الأولى إلى من ابتدأه وأنشأه، وهذه هى الإضافة الحقيقية، والإضافة الأخرى، وهى لمن حفظه وحكاه، ونعلم قطعا أن كل من قال:

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل «١»

لا يكون معارضا لامرىء القيس فيما قاله من هذه القصيدة، بل إنما جاء بها على جهة." (١)

"**الاحتذاء** لقائلها، وهذا الجواب على رأى من قال: الحرف هو الصوت من غير مغايرة بينهما، وهو المختار، لأنه لو كان أحدهما غير الآخر، لصح انفراد الحرف عن الصوت، إذ لا ملازمة بينهما فتوجد أحرف قولنا: الحمد لله رب العالمين (٢)

[الفاتحة: ٢] ولا توجد أصواتها، أو توجد هذه الأصوات المقطعة ولا توجد أحرفها، وهذا لا وجه له، وأما ثانيا فإنه يأتى على رأى من قال: الحرف غير الصوت كما هو محكى عن الشيخين، أبى الهذيل، وأبى على الجبائى، والسبب فى هذه المقالة لهما هو ما ذكرناه من هذه الشبهة، وعلى هذا فإن الحاكى وإن أتى بالصوت، فإنه غير آت بالحرف، فيكون الإعجاز بالحرف دون الصوت، ولعمرى إن الجواب عن الشبهة على هذا القول سهل، لكن هذا القول محال وخطأ لما ذكرناه،

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المُؤَيَّد العلوي ٢٣٨/٣

والجواب عنها يكون بما أشرنا إليه وبالله التوفيق.

الجهة السابعة من الطعن فى القرآن بالإضافة إلى ألفاظه والاختلاف فيها

يكون على أوجه أربعة، أولها فى نفس الألفاظ كقراءة من قرأ (وتكون الجبال كالصوف المنفوش (٥)) [القارعة: ٥] بدل كالعهن

وقراءة (فامضوا إلى ذكر الله) [الجمعة: ٩] بدل فاسعوا

وقراءة (فكانت كالحجارة أو أشد قسوة) [البقرة: ٧٤] بدل فهي كالحجارة

وقراءة (فاقطعوا أيمانهما) [المائدة: ٣٨] عوض أيديهما

وقراءة مالك يوم الدين (٤)

[الفاتحة: ٤] بدل ملك إلى غير ذلك من الاختلاف فى ألفاظه وثانيها فى ترتيب ألفاظه كقوله تعالى: ضربت عليهم الذلة والمسكنة

[البقرة: ٦١] وقرىء (ضربت عليهم المسكنة والذلة) وقرىء: (وجآءت سكرة الحق بالموت) عوض قوله: وجاءت سكرة الموت بالحق

[ق: ١٩] وقوله تعالى: فتلقى آدم من ربه كلمات

[البقرة: ٣٧] برفع «آدم» وقرىء فتلقى آدم من ربه كلمات

برفع «كلمات» فإذا رفع «كلمات» كانت مقدمة، وغيرها مؤخر، لأنها فاعلة، وإذا رفع «آدم» كان مقدما وغيره مؤخر، وثالثها الزيادة كقوله تعالى: (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) [الأحزاب: ٦] وقال تعالى: (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات بنو تميم أكثرهم لا يعقلون) [الحجرات: ٤] وقوله تعالى: (له تسع وتسعون نعجة أنثى) [سورة ص: ٢٣] وقوله تعالى: (والسارقون والسارقات) [المائدة: ٣٨] ورابعها ما يقع من اختلاف الحركات كقوله تعالى ربنا باعد

[سبأ: ١٩] على لفظ الماضى وقرىء باعد

بلفظ الأمر، فالعين تارة تكون مفتوحة، وتارة تكون مكسورة، والمعنى مختلف فى ذلك، وقوله تعالى لقد." (١)

"يخاطب فيها أمه١ والأخرى التى يرثيها بها رثاء حارا٢. وهو بارع في تصوير أحاسيسه ومشاعره، سواء تحدث إلى ابن عمه وهو في أسره٣ أو خاطب حمامة تنوح٤، أو صور ليلة من ليالى حبه٥. غير أن شعره في جملته لا يصعد إلى الأفق الذى يحلق فيه المتنبى، لسبب بسيط وهو أنه أمير مترف، يتناول شعره كما يتناول حياته في يسر وسهولة.

الشريف الرضى:

هو محمد بن الحسين الموسوى، ولد ببغداد سنة ٣٥٩ للهجرة، وكان أبوه نقيب العلويين وعسى بتخريجه على كبار الأساتذة في عصره من أمثال ابن جنى، الذى لا نشك في أنه دفعه دفعا إلى حفظ شعر المتنبى ومحاكاته؛ إذ كان يعجب به إعجابا

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المُؤَيَّد العلوي ٢٣٩/٣

شديدا. وكان الرضى شاعرا بارعا كما كان عالما بارعا، وله مؤلفات كثيرة في تفسير القرآن الكريم وغيره. ولما توفى أبوه عينه بهاء الدولة البويهى نقيبا للأشراف العلويين سنة ٣٩٧ ثم خلع عليه لقبى الرضى والشريف، وظل موقرا مهيب الجانب إلى أن توفي سنة ٤٠٦.

وهو في شعره يكثر من مديح الخلفاء العباسين لعصره وأمراء بنى بويه ووزرائهم؛ إلا أنه يتوقر في مديحه ولا يسف إلى مغالاة أو غلو، بل يحتفظ بكرامته، وهى كرامة ترد إلى طيب محتده ومكانته في بيته وعصره، وكل من يقرأ ديوانه يحس الصلة واضحة بينه وبين المتنبي؛ فقد كان يحتذي شعره **احتذاء**، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر والاعتداد بنفسه، كما أكثر من نقد الأخلاق وأحوال المجتمع والناس من مثل قوله:

وخلائق الدنيا خلائق مومس ... للمنع آونة وللإعطاء

طورا تبادلك الصفاء وتارة ... تلقاك تنكرها من البغضاء

---

١ انظر ديوان أبي فراس "نشر سامي الدهان-طبعة المعهد الفرنسي بدمشق" ٣/ ٣٣٠.

٢ الديوان ٢/ ٢١٥.

٣ راجع الروميات في الديوان.

٤ الديوان ٣/ ٣٢٥.

٥ الديوان ٣/ ٣٩.." [(١)]

"محمد بن يوشف بن سعادة، أبو عبد الله المرسي ثم الشاطبي، المتوفى سنة ٥٥٥هـ، من الراحلين إلى الشرق، الآخذين عن علمائه، وهو صهر أبي علي الصدفي، وإليه صارت كتبه، " نفخ الطيب ١٥٦٥، والتكملة ت ٧٤٦، والمعجم ل بن الأبار ت ١٥٨ ".

محمد بن يوسف بن سليمان، أبو بكر القيس السرقسطي، المعروف بابن الجزار، المقتول سنة ٥٤٠هـ، " الحلل ٢١٥٠، والتكملة ت ٦٣٥، والمعجم لابن الأبار ت ١٢٧ ".

محمد بن يوسف بن عبد الله، أبو الطاهر التميمي السرقسطي، الاشتركوني، المتوفى ٥٣٨هـ، صاحب المسلسل، والمقامات اللزومية، " الحلل ٢١٤٠ والصلة ص ٥٥٦، والمعجم لابن الأبار ت ١٢٤، وسيأتي ذكره، وذكر شرحه للكامل ".

مروان بن عبد الله بن مروان، أبو عبد الله البلنسي، المتوفى سنة ٥٧٨هـ، " التكملة ت ١٠٨٨ ".

منصور بن مسلم بن عبدون، أبو علي الزرهوني الفاسي، المعروف بابن أبي فونا المتوفى ٥٥٦هـ، " المعجم لا بن الأبار ت ١٧٤ والتكملة ت ١١٢٣ ".

يحى بن عبد الله بن فتوح، أبو زكرياء الحضرمي الداني، المتوفى في نحو ٥٥٠هـ، " التكملة ت ٢٠٤٣ ".

الكامل وما إليه

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي شوقي ضيف ص/٣٥٣

مكانته، ونسخه المخطوطة والمطبوعة.
الأغلاط فيه ومؤخذات العلماء عليها.
الأسباب التي وقعت من أجلها هذه الأخطاء والأغلاط.
ما كتب في المؤاخذات والتنبيهات عليه.
شروحه.
الحواشي عليه.
الاحتذاء به والمعارضة له.
ملخصات الكامل ومهذباته.
الكامل والأندلس عناية المغاربة به، وطرق روابنه عندهم، ومن كانت له عناية خاصة به.

١ - مكانة الكامل

كتاب الكامل أثر خالد من آثار المبرد، ومعلمة كبيرة لمعارف اللغة العربية وعلومها وآدابها وهو يحتل مكانة ممتازة بين مؤلفات العلماء في عصر المبرد وفيما قبله وبعده من العصور. وهو خير ما كتب من هذا النوع في تأريخ الأدب العربي كله، منذ البداية إلى يومنا هذا. وقد ترك الكتاب تأثيرا فوق المتصور في لغة العرب شرقا وغربا.

وقد بالغ العلماء في الإقبال عليه والعناية به رواية وقرأة ودراسة وشرحا، ونقدا. وتعليقا، وتهذيبا، وجميع ما كتبوه وألفوه، حول هذا الموضوع. ينقسم إلى خمسة أقسام: " ١ " شروح الكامل " ٢ " الحواشي عليه " ٣ " النقد له أو التنبيهات عليه " ٤ " معارضته أو تقيده " ٥ " تهذيبه أو تلخيصه أو الاختيار منه.

٢ - الإغلاط فيه ومؤخذات العلماء عليها

قبل أن نخوض في الحديث والتنقيب عن مؤلفات العلماء حول الكامل، ونتناولها للبحث والنقاش، لا بدلنا أن نعرف أنواع الأغلاط التي وقعت فيه فأخذ عليها العلماء وأيضا ممن الضروري أ، نعرف أسباب هذه الأخطاء التي جعلت الكامل هدفا لنقد العلماء، وسببا لطعن الأعداء في شخصيه المؤلف.

فان مؤاخذات العلماء على أخطاء المبرد في كتابه الكامل، وترجع إلى ستة أنواع:

المؤخذات اللغوية

وهي الأخطاء والأغلاط التي وقعت في تفسير بعض الكلمات اللغوية كمعاني الكلة ومدلولاتها ومواردها وأصلها وغير ذلك ما يختص بالمفردات اللغوية.

المؤخذات النحوية

وهي الأخطاء والأغلاط التي ترجع إلى القواعد العربية، نحوا، وصرفا، وكاشتقاق الكلمة وتصريفاتها، ومفرداتها، وجموعها، أو تحريك الحروف، وتسكينها.

المؤخذات على أخطائه في إنشاد الشعر

وهي الأخطاء التي وقعت في رواية الشعر العربي، من حيث ألفاظه، وكلماته كقصر الممدود، أو المقصور من الكلمات لحاجات شعرية في زعيم المبرد، أو رواية الشعر بالمعنى لا بالألفاظ، وغير ذلك.

المؤخذات على أخطائه في شرح الأبيات

وهي أخطاء المبرد التي وقعت له في شرح بعض البيات، وذلك لسوء الفهم وقلة التأمل في مراد الشاعر مما جعله، يفسر البيت، ويشرحه كما فهمه، وهو خلاف مما قصده الشاعر.

٥ – المؤخذات على أخطائه في نسبة الشعر إلى قائلية، أو في نسبة الكلام إلى أصحابه من نسبة ما قاله زيد إلى عمرو مثلا.

٦ – المؤخذات على ما أخطأ في حوادث التاريخ ووقائعه، أو ما يتصل به من نساب الأعيان وتراجمهم.

أما الأسباب التي وقعت من أجلها هذه الأخطاء والأغلاط فأهمها أربعة، وهي." [١]

"هذه الحاشية قد استفادة منها عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب. وأخذ منها بموضع واحد، وذلك في قصة الأنصارية المأسورة بمكة التي نجت على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت قد نذرت إن نجت عليها لنحرتها. وقد علق على قصة الصحابية هذه الحاشية، ونقلها البغدادي ما نصه: " قال بعض العلماء فيما كتبه على الكامل: هذه المرأة غفارية لا أنصارية ".

٣ – حاشية الحافظ مغلطائي

لم نجد ذكرا لهذه الحاشية إلا عند البغدادي وذلك مرة وحدة في خزانته ٣٢٦٦ حيث قال، وقد سرد أقوال العلماء في لقب عبيد الله بن قيس الرقيات: " ورأيت نخط الحافظ مغلطاني على هامش كامل المبرد ما نصه: ونقلت من خط الشاطبي: وافق الأصمعي أبن قتيبة على قوله "

وأما مغلطائي، فهو الحافظ أبو عبد الله علاء الدين مغلطائي بن قليج بن عبد الله البكجري الحكري التركي الفقيه الحنفي المصري، ولد سنة ٦٨٩هـ، وتوفي سنة ٧٦٢هـ. كان مؤرخا، حافظا للحديث، عارفا بالأنساب. وكان يحفظ الفصيح بثعلب، وكفاية المتحفظ، وكان نقاوة. وله مآخذ على المحدثين، وأهل اللغة " وكان له إطلاع كبير وباع واسع في الحديث وعلومه، وله مشاركة في فنون عديدة، وله مائة مصنف.

****

" ٧ " **الاحتذاء** بالكامل والمعارضة له

١ – وكان أبو الفتح المراغي ممن احتذى المبرد في كامله وأقتدى به فألف كتبا على نمط الكامل ومثاله وسماه البهجة. وقد قال أبو حيان التوحيدي. وقد ذكر أبا الفتح وكتابه هذا: " وأما أبن المراغي. فلا يلحق بهؤلاء مع براعة اللفظ، وسعة الحفظ، وعزة النفس، وبلل الريق، وغزارة النفث، وكثرة الرواية: ومن نظر في كتاب البهجة له، عرف ما أقول، واعتقد فوق ما أصف، ونحل أكثر مما أبذل. وله تأليف غير هذا، وهذا كتاب الاستدراك لما أغفله الخليل.

---

(١) القرط على الكامل ابن سعد الخير ص/٤٨

٢ – إبراهيم بن ما هوية الفارسي اللغوي كان قد عارض المبرد في الكاما إلا أننا لا نعرف عن الرجل ومؤلفه أكثر مما ذكره المسعودي، فقتله عنه ياقوت في الارشاد. وعنه السيوطي في بغية الوعاة. وكتاب أبن ما هوية هذا من الكتب والمراجع التي اعتمد عليها المسعودي. وذكرها في مقدمة المروج حيث قال: " وكتاب إبراهيم بن ما هويه الفارسي، الذي عارضبه المبرد في كتابه المقلب بالكامل ".

٣ – قد أصر المغاربة على أن كتاب الأمالي لأبي على القالي رحمه الله، معارض، مبار لكتاب الكامل للمبرد، وليس لدينا من الشواهد، ما يؤيد دعواهم، ويحقق رأيهم لأن القالي لم يذكر ذلك، ولم يقل بأنه عارض المبرد. أو أن كتابه مبار لكتابه الكامل إلا أننا لو أردنا أن نتصر لهم، ونبررهم في قوله هذا، لقلنا إن القالي رحمه الله، ولد بعد وفاة المبرد بثلاث سنوات، وقدم بغداد فوجدها حافلة بتلاميذه، وآثاره، فاستفادة منهم. كما أنه استفاد عن آثاره، ومن بينها كتاب الكامل، فعندنا ورد الأندلس وتغرب، ووفد عليه الطلاب، من الأندلسيين للاستفادة منه، والقراءة عليه، أملي عليهم كتابا، سماه بالنوادر يشمل على الأخبار، والأشعار، واللغة. وكانت أمامه أمثلة من الأمالي، والمجالس، والمؤلفات الأخرى في الأدب، واللغة والأعلام الشرق وكان له من المكن أن يستفيد منها أو يقلد أو يحتذى بها أو يعارضها. وقد كان كتاب الكامل هو أغرزها وأوسعها مادة، وأكبرها حجما وضخامة وأكثرها نفعا وفائدة، وهو خير ما أحتذى به المحتذون، وعارضه المعارضون، وتنافس فيه المتنافسون. فلا غرو إذا سمعنا المغاربة يقولون: إن كتاب " النوادر " للقالي مبار لكتاب الكامل لأبي العباس المبرد، ورأيناهم يقارنون بينهما، فيقولون: " لئن كان كتاب أبي العباس، أكثر نحوا وخبرا، فأن كتاب أبي علي لأكثر لغة، وشعرا ".

****

" ٨ " ملخصاته ومهذباته

١ – نظم القرطين وضم أشعار السمطين

هذا الكتاب، الذي لا نعرف عنه شيئا غير الأسم، الذي ورد في طيات الكتب، من تهذيبات الكامل، وتلخسصاته التي عرفت إلى الآن. وةقد ألفه أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله، أبو العباس التدميري المتوفي سنة خمس وخمسمائة، من تلاميذ أبي علي الصدفي، وأبي الوليد الدباغ، وكان عاما باللغة العربية، وآدابها، وقد استأدبه السلطان لبينه بالمغرب.." (١)

"ويقال: إن الأمم كلها، أولها وآخرها، قديمها وحديثها، لم تخف ملوكها خوفها أردشير من ملوك العجم وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من ملوك العرب والإسلام، فإن عمر، رضي الله عنه، كان علمه بمن نأى من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه على مهاد، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي أمير ولا عامل إلا وله عليه عين لا يفارقه، فكان أخبار النواحي كلها عنده كل صباح ومساء، حتى إن العامل كان يتوهم على أقرب الخلق إليه وأخصهم به، فساس الرعية سياسة أردشير في الفحص عنها وعن أسرارها، ثم اقتفى معاوية فعله وطلب أثره، فانتظم له أمره وطالت في الملك مدته.

---

(١) القرط على الكامل ابن سعد الخير ص/٥٦

وكذا كان زياد بن أبي سفيان يحتذي فعل معاوية **كاحتذاء** معاوية فعل عمر، رحمه الله، في تعرف أمور رعيته ومممالكه، وفي ما يحكى عنه أن رجلا كلمه في حاجة له فتعرف إليه وهو يظن أنه لا يعرفه فقال: أصلح الله الأمير، أنا فلان بن فلان، فتبسم زياد وقال: أتتعرف إلي وأنا أعرف منك بنفسك؟ والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك وأعرف هذا البرد الذي عليك وهو لفلان! فبهت الرجل وأرعد حتى كاد يغشى عليه.

وعلى هذا كان عبد الملك بن مروان والحجاج ولم يكن بعد هؤلاء الثلاثة أحد في مثل هذه السياسة حتى ملك المنصور فكان أكبر الأمور عنده معرفة الرجال حتى عرف العدو من الولي والموادع والمسالم من المشاغب فساس الرعية على ذلك، ثم درست هذه السياسة حتى ملك الرشيد فكان أشد الملوك بحثا عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمرا.

وعلى هذا كان المأمون في أيامه، والدليل على أمر المأمون رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام خبر فيها عن عيب واحد واحد وعن نحلته وعن أموره التي خفيت أو أكثرها على القريب والبعيد، ولم يكن أحد من ذوي السلطان الأعظم أشد فحصا وبحثا عن أمور الناس حتى بلغ هذا المبلغ في الاستقصاء وجعله أكبر شغله وأكثره في ليله ونهاره من إسحاق بن إبراهيم.

حدثني موسى بن صالح بن شيخ قال: كلمته في امرأة من بعض أهلنا وسألته النظر لها فقال: يا أبا محمد من قصة هذا المرأة ومن فعلها، قال: فوالله ما زال يحدثني ويخبرني عن قصتها ويصف أحوالها حتى بهت.

وحدث أبو البرق الشاعر قال: كان يجري علي أرزاقا فدخلت عليه فقال بعد أن أنشدته: كم عيالك؟ تحتاج في كل شهر من الدقيق إلى كذا ومن الحطب إلى كذا، فأخبرني بشيء من أمر منزلي جهلت بعضه وعلمه كله.

وحدث بعض من كان في ناحيته قال: رفعت إليه قصة أسأله فيها أجرا وأرزاقا، فقال: كم عيالك؟ فزدت في العدد، فقال: كذبت، فبهت وقلت: يا نفس من أين علم أني كذبت! فأقمت سنة أخرى لا أجسر على كلامه ثم رفعت إليه القصة، فقال: كم عيالك؟ فقلت: كذا، قال: صدقت، ووقع في القصة: يجرى على عياله كذا وكذا.." (١)

"ومن هنا حملت "الرومانتيكية" مذهبا جديدا أطلق الحرية للشاعر، وأفسح للمشاعر الذاتية في نفسه، فانطلق يتغنى بوجدانه وأحاسيسه الفردية، هائما وراء عاطفته المستعرة.

ولهذا كانت "الرومانتيكية" ثورة على سلطان العقل، وتمردا على القيود القديمة "الكلاسيكية"؛ لتتخطى العاطفة والوجدان والمشاعر حواجز التزمت والجمود، الذي فرضه العقل والروتين **والاحتذاء** والتقليد على الواقع الإنساني حتى القرن السابع عشر الميلادي.

وما دامت "الرومانتيكية" قد تحررت من هذه القيود، كان بالضرورة أن تتحرر من الموضوعية، لتنطلق مع الشعر الغنائي، الذي يعبر عن ذات الشاعر من خلال الاتجاهات العاطفية، والقضايا الاجتماعية، على اعتبار أن الشاعر جزء من المجتمع الذي يعيشه أو يتجاوب معه، أو هو قطعة حية منه، ولذلك حطم الشعراء الرومانتيكيون" نظرية المحاكاة عند أفلاطون وأرسطو التي تعبدت "الكلاسيكية حتى القرن السابع عشر الميلادي.

---

(١) المحاسن والمساوئ البيهقي، إبراهيم ص/٦٩

في القرن الثامن عشر الميلادي ظهرت "الرومانتيكية" في فرنسا على يد "جان جاك روسو ١٧٢٢- ١٧٧٨م"، وفولتير، وهيجو، ولامرتين، وبيرون، "ومدام دي ستال ١٧٦٦-١٨١٧م"، "وشاتو بريان ١٧٦٨-١٨٤٨م"، وسواهم.
كانت طبيعة "الرومانتيكية" التمرد على الالتزام المتحجر بالقيود التقليدية، والثورة على التطبيق الحرفي للقواعد الفنية "الكلاسيكية"، لكنهم احتفظوا بروح القواعد القديمة التي تجعل الشعر فنا جميلا ممتعا، وأدبا رائعا جذابا، يفيض حيوية من خلال معاصرته.
ولذلك يبدو الفرق واضحا بين تحطيم القواعد والخصائص الفنية من أساسها، بحيث لا يبقى لها أثر مطلقا، وبين الخروج عن الروتين الجامد فيها، فالخروج يتيح للشاعر استعمال القواعد "الكلاسيكية"، لكن من خلال النظرة المعاصرة، وعن طريق التوليد لها بما يتناسب مع مقتضيات الإنسان من داخل نفسه، عن طريق التجرد من هموم العصر وأثقاله، والتحرر من سلطان الواقع وكابوس الروتين، ولو أثناء تجسيم التجربة الشعورية الذاتية في بناء العمل الفني، مهما كان الوقت قصيرا في تحقيق ذلك.
وهذه الملامح لطبيعة "الرومانتيكية" لا تلتقي في كل الوجوه مع ما ينشأ في الأدب العربي الحديث من مدارس تتشابه لها، وإن اتفقت معها في بعض الخصائص، ومنها صفة الإنسانية التي يشترك فيها كل إنسان في العالم مهما اختلفت مشاربه واتجاهاته.
ولكن يظل الفرق واضحا من حيث الظروف، والدواعي، والأسلوب، والاتجاه الأخلاقي، والمزاج الشخصي النامي من بيئة معينة.." (١)

"ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة ودرس الأساليب الفصحى **والاحتذاء** عليها.

٤- الخصومة بين القديم والجديد في الأدب؛ طه حسين:
الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة الهلال وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعي. إن مصدر هذه الخصومة إنما هي صحيفة الأدب في السياسة حول رسالة "أسلوب في العتب" ذهب فيها الرافعي مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء ثم إن المعركة تحولت إلى معارك ثلاث:
١- بين طه حسين والرافعي: السياسة.
٢- بين السكاكيني وشكيب أرسلان: السياسة.
٣- بين الرافعي وسلامة موسى: الهلال.
للأستاذ الرافعي في فصله هذا آراء محتاجة إلى شيء من المناقشة. ومنها ما كان يحتاج إلى شيء من المراجعة قبل أن ينشر ويعلن إلى الناس، انظر إليه مثلا يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي وقوة في اللغة والأدب الأجنبي. وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد إنما هم قوم ضيعوا حظهم من لغة

(١) المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية علي علي صبح ص/٢٨٠

العرب وآدابهم وأخذوا بنصيب موفور في لغات الإفرنج وآدابهم.
نعتقد أن الأستاذ الرافعي يسرف في هذا الحكم. ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم، إن صحت نظريته أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذاهب." (١)

"مشابهة الأسقاط، والمزاحمة على لقاط هذا اللقاط، فقال: اعلم أنما غشيك من يم ظنك وهم، وكبا بوهم حدسك نضو فطنة ووهم، فطلق ما أهمك وهمك، وخالع عرس ما أهمك وهمك، قال: فراجعت مكاتبته الفريدة، لأستولد مقالته المفيدة، فإذا طرفاها، قد نطقا به وفاها، ونشر عرف المعرفة وفاها، وفتح مفتاح الحكم نطقها وفاها، فكانت: البسيط: ابهة الأسقاط، والمزاحمة على لقاط هذا اللقاط، فقال: اعلم أنما غشيك من يم ظنك وهم، وكبا بوهم حدسك نضو فطنة ووهم، فطلق ما أهمك وهمك، وخالع عرس ما أهمك وهمك، قال: فراجعت مكاتبته الفريدة، لأستولد مقالته المفيدة، فإذا طرفاها، قد نطقا به وفاها، ونشر عرف المعرفة وفاها، وفتح مفتاح الحكم نطقها وفاها، فكانت: البسيط:

أفدي الكريم الذي أقبلت ألثمه ... ألفا وألفا لأشواقي أولى الكلف

فخلته قمرا تجلى برؤيته ... بغداد مع سلسل وافى على اللهف

بل حلة وردت نحوي ويوسفها ... أنت العزيز على يعقوبك الدنف

فلا برحت تسود الدهر مدرعا ... عزا تطرز بالتأييد ذي الشرف

فحين سهرت لنشوة إنشادها، وسكرت من سلافة انحشادها، أيقنت أنه مسدد الأسجاع، مؤيد بمخاذم الاختراع، سارب في مسارب هذي لأساليب، شارب من مشارب هذه الشآبيب، يتسلط على الإنشاء، تسلط النهشل على الشاء ويترنح بهذا الانتشاء، بين رقل وشيه والأشاء، ولما عجبت بانتصاب تمييزه، وانصباب لباب وجيزه وتعجيزه، وتهذيب ألفاظه وتنويهه، ونبيه إيقاظه وتنبيهه، أخذت أفكر في محض محض خطابه، وبض نض نضير ما خطابه، وفتح باب رد جوابه، وقبح إهمال رفع قدر جوابه، فكنت كمن رام من الربع الدارس كلاما، والجهام المتقاعس انسجاما، وعلمت أن جمانه لا يعارض بجزع حقير، وفيضه لا يناقض بنضح جزع يسير، فتقمصت قمص الإنصاف، ونقصت نقص ضرب الأنصاف في الأنصاف واقتصرت يوم ظعن غلامه، ونشرت للرحلة أعلامه، على بيتين اقتضبتهما، وكلفت القريحة لهما وهما: البسيط:

أنى أقابل بحرا فاض لؤلؤه ... بنغبة من غدير غير فياض

أم كيف أرفل في ثوب به قصر ... من الفصاحة رث غير فضفاض

ثم إني جانبت الجفول، وودعت القفول، وأودعتهما الرسول، وجعلت الوسيلة في لقاء الرسول.

المقامة العاشرة الشاخية

حدث القاسم بن جريال، قال: نبذني كر الفكر الأليم، إلى هوة هول الوله المليم، لجزع هائل، وترح غائل، يغيب لوقوعه الجنان ويشيب قبل إنسانه الإنسان، فم أزل أصحر بقفر وهم لهم، وأبحر بحومة هم لهم، إلى أن عدت أقنع بعد الإقامة بالنهم، والكنانة بالسهم، والسليم بالوشيب، والجديد بالقشيب، فحين أظم محيا الحظ الناقص، وعظم ضرع التفرع القانص،

---

(١) المعارك الأدبية أنور الجندي ص/٢١٠

بادرت إلى **احتذاء** سبتية فتية، وامتطاء حربية أبية، حذرا من تسرمد الوسواس، وتجلمد مدر ذلك الإفلاس، لعلمي أن النحرير من حبس سيب بؤسه خوف الطغيان وطمس عين تنور عكوسه قبل الطوفان، فلما استويت على لاحب الإنسراب، وانثنيت لقطف ثمار خوض السراب، وانفجرت شآبيب الشؤون. وانكسرت صعاد الصبر الخؤون، أخذت أمعن في تذكر المصافات، وأطعن العطن بعامل الالتفاتات، حتى أفنيت التعلات، وأبكيت قائد اليعملات، ولما كل كلكل العبرات، واستل سيف السهو سرف فارس الحسرات، جعلت أنشد أبياتا كان أنشدنيها أبو نصر بحاء، حين فارق أطيفاله الطلحاء، وهي: الرجز:

لا تندمن على الدمن ... كلا ولا طيب العطن

وازج الركاب فإنما ... يجني الفضائل من شطن

وانض الهموم فإنها ... خيل تشن على الوسن

كم قد لبست خويصتي ... أبغي النجاة من الزمن

ولكم قطعت تنوفة ... حذر العدو وقد عدن

ولكم نشدت ببلدة ... عند الوداع وقد ابن

يا بلدة تعلي الجهول ... وتخفض الفذ اللسن

لا حلك السح السكوب ... ولا انزوت عنك القنن

فالموت دون شماتة ... تصمي الفؤاد من الحزن

يا طالما ذل العزيز ... ورهطه لما قطن

بين اللئام فلا سكن ... عنه العنا لما سكن." (١)

"ووضع محمد حرما لمسجد النبي في المدينة، وإنما الحرم شاع قبلا عند اليهود حول هيكل أورشليم واتخذه النصارى لبعض كنائسهم الكبرى لامتيازها وهو الحمى كان الداخلون فيه أمان، وقد ورد في المشرق (١٣ [١٩١٠] : ٧١) اكتشاف المسيونويل جيرون نصب أي عمود ضخم من الحجر المانع في دمشق كان دالا على حمى كنيسة دمشق قبل الفتح الإسلامي كما تبينه كتابة يونانية أثبتناها هناك.

وكان للنصارى قرب بعض الكنائس بروج للأطيار لا يجوز صيدها كحمام مكة التي يضرب المثل في أمانها فيقال آلف من حمام مكة.

وكان العرب يطوفون حول الكعبة، وكانت تلك عادة جارية بين النصارى العرب أن يطوفوا حول الكنائس قال الشاعر الجاهلي يذكر طواف النصارى حول الصليب فدعاه زورا بالوثن (لسان العرب ١٧: ٣٣٤) :

يطوف العفاة بأبوابه ... كطوف النصارى ببيت الوثن

ومما رواه في الأغاني (٧: ١٤٨) لعنترة وقيل بل لعبد قيس بن حفاف البرجمي قوله:

---

(١) المقامات الزينية ابن الصيقل الجزري ص/٢٥

تمشي النعام به خلاء حوله ... مشي النصارى حول بيت الهيكل

وقال الحارث بن خالد يصف بشرة أمة عائشة بنت طلحة (أغاني ١٥: ١٣٣) :

وبشرة خود مثل تمثال بيعة ... تظل النصارى حوله عيدها

(استلام الحجر الأسود) ومن المعلوم أن المسلمين إذا حجوا إلى الكعبة وطافوا حولها استلموا الحجر الأسود الذي فيها ولعلهم يفعلون ذلك احتذاء بنبيهم.

قال البخاري في الصحيح (٢: ١٤٧) : "جاء عمر غلى الحجر الأسود فقبله فقال: أني اعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقبلك ما قبلتك".

قلنا ولا يبعد أن العرب أخذوا ذلك عن النصارى الذي يقبلون حجارة كنائسهم تعبدوا أو كحجاجهم إلى القدس الشريف حيث يقبلون قبر السيد المسيح أو الحجر الذي صعد من فوقه إلى السماء في جبل الزيتون وعليه رسم أثر قدمه المبارك.

وقد سبق لنا ذكر حمام مكة ومأمنها من الصيد، ودونك ما روي عن حمام الكنائس روى الطبري في تاريخه (٢: ٨٦١) لرجل من بكر بن وائل ونسبه في الأغاني (٢: ٧٢) لعبد الرحمان بن الحكم:

أتتك العيس تنفخ في براها ... تكشف عن مناكبها القطوع

كأن مواقع الأكرار منها ... حمام كنائس بقع وقوع

(النذور) يروى عن عرب الجاهلية انهم كانوا ينذرون مواليدهم للكعبة.

ذكر أبو الوليد الأزرقي في أخبار مكة (ص١٢٨ ١٢٩) عن امرأة خزم بن العاص الجرهمية أنها كانت عاقرا فنذرت إن ولدت غلاما أن تتصدق به على الكعية عبدا لها يخدمها ويقوم عليها فولدت من أخزم الغوث فتصدقت به عليها فكان يخدمها مع أخواله من جرهم (قلنا) أن هذه العادة اعني نذر المولود إلى الله كان سبق العرب إليها أصحاب الكتاب من يهود ونصارى، وكل يعرف كيف نذرت حنة العاقر أن ولدت غلاما تجعله في خدمة الله فولدت صموئيل فوقت بنذرها، وقد ورد في القرآن سورة آل عمران نذر امرأة عمران (يعني القديسة حنة) بأبتها مريم العذراء فخدمته تعالى بالمحراب تحت كفالة زكريا الكاهن.

(المساجد وبناؤها على شكل الكنائس) لا مراء في أن المسلمين أول ما شيدوا المساجد لصلاتهم بنوها على صورة الكنائس فضلا عما حولوه منها إلى جوامع عند فتحهم البلاد النصرانية كالجامع الأموي في دمشق، والجامع الأقصى في القدس الشريف وجوامع حمص وحماة وحلب فكل من يدخل هذه الجوامع من المهندسين يحتم لأول وهلة أنها من هندسة النصارى الأقدمين كما أثبتنا ذلك في فصل الفنون الجميلة (ص٣٤٣ ٣٥٠) فلما حاول المسلمون تشييد مساجد جديدة تقلدوا فيها الكنائس النصرانية وكان بناتها في الغالب نصارى من الروم والقبط وأهل الشام لا يعرفون إلا هندستهم الدينية.

وقد قابل المرحوم فان بركم (M, van Berchem) بين كل أقسام الجوامع كصحنها ورواقها وأركانها وعواميدها وسقفها وقبلتها ومحرابها ومنبرها ومقصورتها ومنارتها وبين الكنائس النصرانية وأقسامها المختلفة عند ظهور الإسلام وختم بقوله "إن

وضع الجوامع يشبه شبها تاما واضحا بناء الكنائس القديمة" يريد الكنائس المعروفة بالكنائس الملكية (Basiliques) .." (١)

"المجلد الأول

مقدمة

...

ذلك بذوقه غير مستعين بمعلم ولا مرشد، وقد ذكر ذلك عن نفسه في مقدمة كتابه النظرات حين سئل كيف يكتب رسائله، فزعم أنه ما استطاع أن يكتب تلك الرسائل التي يعلموها بهذا الأسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون له الفضل فيه، إلا لأنه استطاع أن يتفلت من قيود التمثل **والاحتذاء**. ولأنه عمد إلى كتب الأدب فأكثر القراءة فيها، وأحب الأدب حبا جما ملأ ما بين جوانحه، فلم تكن ساعة من الساعات أحب إليه ولا آثر عنده من ساعة يخلو فيها بنفسه، ويمسك عليه بابه، ثم يسلم نفسه إلى كتابه، فيخيل إليه كأنه قد انتقل من هذا العالم الذي هو فيه إلى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر، فيشاهد بعينيه تلك العصور الجميلة عصور العربية الأولى، ويرى العرب في عصور بداوتهم وحضارتهم وألوان حياتهم. وزعم في تلك المقدمة أنه كان لا يحول بينه وبين تلك السعادة التي كان يلقاها في مطالعة هذه الكتب إلا بعض شيوخه الذين لا يرون رأيه فيها، وهم لا يعلمون أنهم حسنة من حسنات الأدب هم وجميع ما يدور به جدار." (٢)

"المقدمة:

يسألني كثير من الناس كشأنهم في سؤال الكتاب والشعراء، كيف أكتب رسائلي؟ كأنما يريدون أن يعرفوا الطريق التي أسلكها إليها فيسلكوا معي، وخير لهم ألا يفعلوا، فإني لا أحب لهم ولا لأحد من الشادين في الأدب أن يكونوا مقيدين في الكتابة بطريقتي أو طريقة أحد من الكتاب غيري، وليعلموا إن كانوا يعتقدون لي شيئا من الفضل في هذا الأمر أني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل التي يعلموها بهذا الأسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون لي الفضل فيها إلا لأني استطعت أن أتفلت من قيود التمثل **والاحتذاء**، وما نفعني في ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي، والتواؤها علي وعجزها عن أن تمسك إلا قليلا من المقروءات التي كانت تمر بي، فلقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ، ثم لا ألبث أن أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي إلا جمال آثاره وروعة حسنه، ورنة الطرب به، وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي، أو أستعين به على تهذيب بياني، أو تقويم لساني، أو تكثير مادة علمي باللغة والأدب، بل كل ما كان من." (٣)

"في هذا المجال. وكل ناقد؟ مهما تكن طريقته؟ يحتاج تلك الخصائث التي سميناها الذكاء والمعرفة والمهارة والحساسية والقدرة على الكتابة؟ يحتاج الذكاء ليكيفه بما يلائم العمل الذي يعالجه، والمعرفة من أدبية وغير أدبية ليكون على وعي بما يتطلبه عمله، والمهارة لئلا تتدرج به طريقته أو تنساق به نحو وحدة آلية جوفاء، والحساسية ليظل دائما متنبها للقيم الخاصة

---

(١) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية لويس شيخو ص/١٨٥

(٢) النظرات المنفلوطي ١/٢

(٣) النظرات المنفلوطي ١/٣

في العمل الذي ينتقده من حيث أنه يمثل تجربة جمالية فذة، والمقدرة الأدبية ليحسن التعبير عما يريد أن يقوله. وليس ثمة من محك تختبر به هذه الخصائص الذاتية، حتى إن شيكسبير، ذلك المحك التقليدي، ليس عونا كبيرا في هذا المضمار. فهنالك رجلان تميزا في النقد المعاصر بالحط من شيكسبير وشتان ما هما: أولهما ولدو فرانك وهو داعية للتقوى محترف وليس له إلا علاقة واهية بالأدب، ولثاني جون كرو رانسوم وهو من أحذق العقليات الناقدة وأشدها مضاء وحدة في عصرنا. وعند تقدير أعمال الناقدين لا يحسب حساب هذه الخصائص، وعندما نستعرض طريقة نقدية ونخضعها للمقياس الموضوعي ونعزلها عن صاحبها الحي، نستطيع أن نفترض وجود هذه الخصائص أو؟ على الأصح؟ أن نرجو توفرها.

ومن المضامين الرئيسية في النقد الحديث تطوره ليكون علما، أما في المستقبل الذي يمكن التكهن به والحكم عليه، فالنقد لن يصح علما؟ سواء أتقبلنا هذه الحقيقة مستسلمين أو شاكرين؟ ولكنا نتوقع منه أن يزداد تدرجا في الاتجاه العلمي أي نحو تكوين منهجية شكلية ونظام للمعالجة قابلين للنقل **والاحتذاء** موضوعيا. وكما أن أي تجربة عملية يمكن محاكاتها أو اختبارها ما كتب عنها في أي زمان ومكان وعلى يد أي شخص يستطيع القيام بالممارسة الضرورية، فكذلك هي المعالجة النقدية؟ سيصبح في مقدور أي فرد أن يعيدها ما دامت تتوفر له القدرة والرغبة الضروريتان أما الحساسية الخاصة فشيء يتفرد به الناقد ويموت بموته، وأما وسائله فإن." (١)

"والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض.

وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها، ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد، فلما أفضى الشعر الى المحدثين، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف، تكلفوا **الاحتذاء** عليها فسموه البديع؛ فمن محسن ومسيء، ومحمود ومذموم، ومقتصد ومفرط.

فإذا جاءتك الاستعارة كقول زهير:

وعري أفراس الصبا ورواحله

وقول لبيد:

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وقول ابن الطثرية:." (٢)

"جنبها ما يصلح لمصاحبتها. ولعل أكثرها، أو معظم ما أثبت منها، وكثيرا مما ذكر في درج ما تقدمها من اللمع المختارة، مختارة المعاني مفترعة المذاهب. وليس لك أن تلزمني تمييز ذلك وإفراده والتنبيه عليه بأعيانه كما فعله كثير ممن استهدف للألسن، ولم يحترز من جناية التهجم؛ فقال: معنى فرد، وبيت بديع، ولم يسبق فلان الى كذا، وانفرد فلان بكذا؛ لأني لم أدع الإحاطة بشعر الأوائل والأواخر؛ بل لم أزعم أني نصفته سماعا وقراءة، فدع الحفظ والرواية. ولعل المعنى الذي أسمه بهذه السمة، والبيت الذي أضيفه الى هذه الجملة في صدر ديوان لم أتصفحه؛ أو تصفحته ولم أعثر بذلك السطر منه،

---

(١) النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ستانلي هايمن ٢٠/١

(٢) الوساطه بين المتنبي وخصومه ونقد شعره الجرجاني، الشريف ص/٣٤

أو عساني أن أكون رويته ثم نسيته، أو حفظته لكني أغفلت وجه الأخذ منه، وطريقة **الاحتذاء** به.
وإنما أجسر في الوقت بعد الوقت فأقدم على هذا الحكم انقيادا للظن، واستنامة الى ما يغلب على النفس؛ فأما اليقين الثقة، والعلم الإحاطة فمعاذ الله أن أدعيه! ولو ادعيته لوجب ألا تقبله، مع علمك بكثرة الشعراء واختلاف الحظوظ، وخمول أكثر ما قيل: وضياع جل ما نقل. وأظنك قد سمعت أو انتهى إليك أن البحتري أسقط خمسمائة شاعر في عصره، فما يؤمنني من وقوع بعض أشعارهم الى غيري؟ وما يدريني ما فيها؟ وهل هذا المستغرب المستحسن منقول عنها، ومقتبس منها؟ وهؤلاء المحدثون الذين شاركونا في الدار والبلد، وجاورونا في العصر والمولد. فكيف بمن بعد عهده، وقدم زمانه، وتناسخت الأمم بيننا وبينه! زعم بعض آل الزبير أنه زار عروة بن الزبير ذات يوم، فسأله عما يعنى بطلبه من العلوم، فقال: قلت الشعر. فقال: لأي قبائل العرب أنت أروى! فقلت: لبني سليم، فأنشدني لعدة أكثرها من بني سليم، ولم أعرف واحدا منهم.." (١)

"أتت دونها الأيام حتى كأنها ... تساقط نور من فتوق سماء

من قول جرير:

يجري السواك على أغر كأنه ... برد تحدر من متون غمام

ولست أرى شبها يشتركان فيه إلا إن ادعي **احتذاء** المثال فلعله. وأن قوله:

ترى العين تستعفيك من لمعانها ... وتحسر حتى ما تقل جفونها

من قول الأبيرد:

وقد كنت أستعفي الإله إذا اشتكى ... من الأمر لي فيه وإن عظم الأمر

ولا أراهما اتفقا إلا في الاستعفاء، وهي لفظة مشهورة مبتذلة، فإن كانت مسترقة فجميع البيت مسروق، بل جميع الشعر كذلك؛ لأن الألفاظ منقولة متداولة وإنما يدعى ذلك في اللفظ المستعار أو الموضوع، كقول أبي نواس:

طوى الموت ما بيني وبين محمد ... وليس لما تطوي المنية ناشر

وقول البطين البجلي:

طوى الموت ما بيني وبين أحبة ... بهم كنت أعطي ما أشاء وأمنع

وكقوله:

سقته كف الليل أكؤس الكرى

وقول الآخر:

سقاه الكرى كأس النعاس فرأسه ... لدين الكرى في آخر الليل ساجد." (٢)

---

(١) الوساطه بين المتنبي وخصومه ونقد شعره الجرجاني، الشريف ص/١٦٠

(٢) الوساطه بين المتنبي وخصومه ونقد شعره الجرجاني، الشريف ص/٢١١

"باب دارنا، إذا الوزير أبي بكر بن عمار قد أقبل في موكب زجل على فرس كالصخرة الصماء قدت من قنة الجبل، فحين حاذاني ورآني، أشرأب إلي ينظرني، وبهت يتأملني، ثم دفع بمخصرة كانت في يده في صدري، وأنشد:

كف هذا النهد عني ... فبقلبي منه جرح

هو في صدرك نهد ... وهو في صدري رمح

قال علي بن ظافر

وذكر الفتح بن خاقان في كتاب القلائد ما معناه قال: أخبرني ذو الوزارتين أبو المطرف بن عبد العزيز أنه حضر عند المؤتمن بن هود في يوم أجرى فبه الجو أشقر برقة، ورمى ببندق ودقة، وحملت الرياح فيه أوقار السحاب على أعناقها، وتميلت قامات الغصون في الحلل الخضر من أوراقها، والأزهار قد تفتحت عيونها، والكمائم قد ظهر مكنونها، والأشجار قد انصقلت بمداوس القطر، ونشرت ما يفوق ألوان البز وبثت ما يعلو أرواح العطر، والراح قد أشرقت نجومها في بروج الراح، وحاكت شمسها شمس الأفق فتلفعت بغيوم الأقداح، ومديرها قد ذاب ظرفا فكاد يسيل من إهابه، وأخجل خده حسنا فتكلل يعرق حبابه؛ إذا بفتى رومي من فتيان المؤتمن أقبل متدرعا، كالبدر اجتاب سحابا، والخمر اكتست حبابا، والطاووس انقلب حبابا، فهو ملك حسنا إلا أنه جسد، وغزال لينا إلا أنه في هيئة أسد، وقد جاء يريد استشارة المؤتمن في الخروج إلى موضع كان عول فيه عليه، وأمره أن يتوجه إليه، فحين وصل إلى حضرته لمحه ابن عمار، والسكر قد استحوذ على لبه، وانبثت سراياه في نواحي قلبه. فأشار إليه وقربه، واستبدع ذلك اللباس واستغربه، وجد في أن يستخرج الدرة من ماء ذلك الدلاص، وأن يجلي عنه سهكه كما يجلي عنه الخبث عن الخلاص، وأن يوفر على ذلك الوفر نعمة جسمه، ويكون هو الساقي على عادته القديمة ورسمه، فأمره المؤتمن بقبول أمره وامتثاله، واحتذاء مثاله، فحين ظهرت تلك الشمس من حجبها ورميت شياطين النفوس من كمت المدام بشهبها ارتجل ابن عمار يقول:

وهويته يسقي المدام كأنه ... قمر يدور بكوكب في مجلس

متناوح الحركات يبدي عطفه ... كالغصن هزته الصبا يتنفس

يسقي بكأس في أنامل سوسن ... ويدير أخرى من محاجر نرجس." (١)

"البسوس ومصرع الحسين، ويغزل على نول قديم، وبينه وقد اصبح هو ونوله ضحية لآلة حديدية جديدة: تسكب السم واللظى لا حليب الأم أو رحمة الأب المفقود ... ويعلن الشاعر في النهاية انهيار الإنسان وسقوطه بعد أن أصبحت الأرض سوقا تباع فيها لحوم الآدميين في أفريقية وآسية:

هكذا قد أسف من نفسه الإنسان وانهار كانهيار العمود ... فهو يسعى وحلمه الخبز والأسمال والنعل واعتصار النهود ... والذي حارت البرية فيه بالتآويل كائن ذو نقود ... وبهذا الدمار الشامل يستطيع الشاعر أن يعلن انه قد اختار ختاما لقصيدته يصلح الوقوف عنده، لأنه وان لم يتحول إلى شيء من التفاؤل فهو على الأقل قد ضمن خاتمته شيئا غير قليل من الأسى المبهم على المصير الإنساني

---

(١) بدائع البدائه ابن ظافر الأزدي ص/٢١١

تلك هي القصيدة التي أراد السياب بها أن يمضي نطاق القصيدة الطويلة (١) ، وقد رأينا مدى تأثيره فيها بالشاعرة الإنجليزية، ولكن بذل قسطا كبيرا من الجهد ليستقل رغم الاتباع الدقيق، وكان كأنما يترسم خطة مدرسة في هذا العمل، فهو قد هيأ مادة جديدة ينطلق منها للحديث عن موضوع مشترك؛ وحين رأى الشاعرة تتخذ رموزا معينة، لم يقف عند حد استعارة تلك الرموز بل حاول أن يختلق رموزا جديدة يستقل بها، وان يحشد لقصيدته أساطير لم تخطر لها على بال، ومن مجموع القصيدة يتبين للقارئ ان الشاعر كان " يؤلف " بقوة **الاحتذاء** وأنه لم يكن " يبدع ". ولولا النقد الذي واجهته بعض أجزاء هذه القصيدة حين نشرت في الادب، لخمل لنا الشاعر كان

---

(١) هناك مزيد من التحليل الجيد لهذه القصيدة أورده الأستاذ عبد الجبار داود البصري في كتابه عن السياب ص:٧٢ وما بعدها.." (١)

"فصل: غرابة أوضاعه التركيبية

وههنا أمر دقيق لا بد لنا من طلب وجهه؛ لأنه شطر الإعجاز في القرآن الكريم، وسائر ما قدمناه شطر مثله؛ وذلك أنك حين تنظر في تركيبه لا ترى كيفما أخذت عينك منه إلا وضعا غريبا في تأليف الكلمات، وفي مساق العبارة، وبحيث تبادرك غرابته من نفسها وطابعها بما تقطع أن هذا الوضع وهذا التركيب ليس في طبع الإنسان، ولا يمكن أن يتهيأ له ابتداء واختراعا دون تقديره على وضع يشبهه، أو **احتذاء** لبعض أمثلة تقابله، لا تحتاج في ذلك إلى اعتبار ولا مقايسة، وليس إلا أن تنظر فتعلم١.

ولو ذهبت تفلي كلام العرب من شعر شعرائهم ورجز رجازهم وخطب خطبائهم وحكمة حكمائهم وسجع كهانهم، من مضى منهم ومن غبر على أن تجد ألفاظا في غرابة تركيبها "التي هي صفة الوحي" كألفاظ القرآن، وعلى أن ترى لها معاني كهذه المعاني الإلهية التي تكسب الكلام غرابة أخرى يحس بها طبع المخلوق ويعتريه لها من الروعة ما يعتري من الفرق بين شيء إلهي وشيء إنساني، لما أصبت في كل ذلك مما تختاره إلا لغة وأوضاعا ومعاني إنسانية، تقع بجملتها دون قصدها الذي أردت، ولا ترضاها للتمثيل والمقابلة، ولا تراها تحل مع القرآن إلا في محل نافر ولا تنزل منه إلا في قاصية شاردة؛ ثم لوجدت فرق الغرابة الإلهية بين اثنينهما في الكلام عين ما تعرفه من الفرق بين الماء في سحابه، والماء في ترابه.

وما من بليغ يتدبر هذه الأوضاع في القرآن؛ ثم تحدثه النفس في خاطرا إنسانيا يتشوف إلى مثلها، أو يصل بها سببا من أسباب المطمعة، أو يظن أنه قادر عليها، إذ يرى غرابة الوضع في تركيب الألفاظ أشبه شيء بالتوقيف الإلهي في وضع الألفاظ نفسها لو كان وضعها ابتداء واختراعا في اللغة وكان ذلك في زمنه "أي: البليغ" أو بعين منه بحيث تظهر له غرابة الوضع اللغوي خالصة جديدة، لا شوب فيها مما يألفه السمع أو تمكنه العادة، أو نحو ذلك مما يجعل الغريب مأنوسا، أو يأخذ من غرابته أو يصقل بعض جهاتها، فيظهر الأمر الغريب وكأنه غير ما هو في نفسه.

على أنه لا يجد مع تلك الغرابة في أوضاع القرآن، إلا ألفاظا مؤتلفة متمكنة، التئام سردها وتناصف وجوهها؛ لا ينازع لفظ

---

(١) بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره إحسان عباس ص/٢٦٣

واحد منها إلى غير موضعه، ولا يطلب غير جهته من الكلام. ولعمري إن اتفاق هذا الإحكام العجيب مع غرابة الوضع، لهو أغرب منها في مذهب البلاغة، وأدخل في باب العجب، ولولا أن الأمر إلهي، ولا عجب من قدرة الله.

---

١ في هذا المعنى كلام سيأتي في موضعه من البلاغة النبوية.." (١)

"الباعث على اختراع الشعر:

الشعر قديم في فطرة العرب كما قلنا، ولكنا إنما نبحث في هذا الكلام المقفى الموزون، فهو بهذا القيد لا يكون شعرا حتى يكون قد استوفى صفة اللفظ، ولا يستوفيها حتى تكون الألفاظ قد مرت بها اللغة في أدوار كثيرة كما أشرنا إلى ذلك، وقد بقي أن نعرف كيف نطقوا بهذا الكلام، وما الذي نبههم إليه وأجراه على ألسنتهم، وهو معلوم أن ذلك لا يمكن أن يكون **احتذاء** لشعر أمة أخرى، فإن السريانيين والعبرانيين لا يشترطون في شعرهم التقفية، والعبرانيون قد يشترطون القافية دون الوزن، فيكون الشعر شبيها بالسجع عند العرب؛ فضلا عن أن هذه الأوزان العربية ليست لأمة من الأمم؛ قال ابن رشيق في ذلك: كان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز نفوسها إلى الكرم، وتدل أبنائها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض فعملوها موازين للكلام؛ فلما تم لهم وزنه سموه شعرا؛ لأنهم قد شعروا به، أي: فطنوا له.

وهو كلام يعطيك من ظاهره ما شئت أن تتأول ولا باطن له؛ ولكن الذي عندنا من ذلك أن الوزن نفسه مر في العرب على أدوار، فكانوا يحدون الإبل من أقدم أزمانهم بكلام وأصوات تشبه التوقيع؛ لأنه من المعلوم بالضرورة أنه لا ينفس من التعب ولا يبعث على النشاط غير الأصوات الموقعة على وزن ما؛ وقد نقل ابن رشيق في "العمدة" أن أصل الحداء عندهم من النصب، وهو غناء الركبان والفتيان، اشتقه رجل من كلب يقال له جناب بن عبد الله بن هبل، فسمي لذلك: الغناء الجنابي، وكله يخرج من أصل الطويل في العروض، وهو لا يريد إلا الحداء المنظم الموزون الذي جروا عليه أخيرا صنعة لا فطرة فيها، وقال في موضع آخر: ويقال إن أول من أخذ في ترجيع الحداء، مضر بن نزار؛ فإنه سقط عن جمل فانكسرت يده، فحملوه وهو يقول، وايداه! وايداه! وكان أحسن خلق الله جرما وصوتا، فأصغت الإبل إليه وجدت في السير، فجعلت العرب مثالا لقوله "هايدا هايدا" يحدون به الإبل. وقالوا في أصل الحداء غير ذلك "ص٢٤١ ج٢: العمدة" ولكنهم لم يرجعوه إلى ما قبل زمن مضر، وهي أقوال لا دليل عليها، وإنما جاءوا بها تأويلا للفظ الحداء عند العرب.

ثم خرجوا عن هذا الوزن في الحداء إلى وزن الأصوات في الحروب، إذ كانوا في ذلك لا يجرون على نظام كنظام الأمم المتحضرة، ومن أجل ذلك كان طبيعيا أن تكون تلك الأصوات القوية مما تشد به القلوب على القلوب، وهم لا يمدحون شيئا كجهارة الصوت وسعة الجرم، وهلم في ذلك أخبار عريضة ذكر الجاحظ منها طرفا في كتابه "البيان"؛ ثم إنهم كانوا

---

(١) تاريخ آداب العرب الرافعي ، مصطفى صادق ١٦٤/٢

يخرجون تلك الأصوات في مواقفهم للضرب والطعن والصراع والجلاد، وتارة مقاطيع من الحروف تكون صيحات، وتارة." (١)

"عهد الطوائف قضى بقية حياته ببلده يابرة (١) .

فمن شعره الذي يذكر بطريقة أبي الطيب:

هيهات لا أبتغي منكم هوى بهوى ... حسبي أكون محبا غير محبوب

فما أراح لذكرى غير عالية ... ولا ألذ بحب دون تعذيب

ولا أصالح أيامي على دخن ... ليس النفاق إلى خلقي بمنسوب

يا دهر أن توسع الأحرار مظلمة ... فاستثني إن غيلي غير مقروب

ولا تخل أنني ألقاك منفردا ... إن القناعة جيش غير مغلوب ذلك إنه يبنيه على القوة، ويستأنف بعد قطع الكلام بإرسال الحكمة والمثل، إلا أنه قد يخالف المتنبي في فلسفته إذ يقول: " ولا ألذ بحب دون تعذيب "، كما يخالفه ويبتعد عن طريقه في قوله: " إن القناعة جيش غير مغلوب "، ولكن السياق العام في القصيدة فيه **احتذاء** شديد لأبي الطيب.

ومن نغماته التي يعيد فيها بعض التدفق في أسلوب المتنبي قوله (٢) :

فما أبقوا ولا هموا ببقيا ... ونقل الطبع ليس بمستطاع

فلو سقت السماء الشري أريا ... لما احلولت مراعيه لراع

بدهر ضاعت الأحساب فيه ... ضياع الرأي في السر المذاع

فبعتهم بتاتا لا بثنيا ... ولا شرط ولا درك ارتجاع

ولم أجعل قرابي غير بيتي ... وحسبي ما تقدم من قراع

---

(١) الذخيرة – القسم الثاني (المخطوط) : ٢٦٥.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٢.." (٢)

"٥ – الاتجاه الهزلي:

قلما كان الشعر في العصر الأموي؟ السابق – ممثلا للفكاهة الاندلسية، وكان المشهورون من الأندلسيين بالفكاهة إذا تندروا هجوا. ولما كتب ابن شهيد " شجرة الفكاهة " أو رسالته المعرفة بالتوابع والزوابع لم يكن للفكاهة فيها حظ كبير يناسب مقدار ما فيها من عجب وزهو ذاتيين. أما في هذا العصر – عصر الطوائف والمرابطين – فقد احتلت الفكاهة مكانة واسعة في الشعر والنثر، وزاد الأندلسيين بطبقة القضاة والفقهاء، واستوى لهم في بعض النواحي ما وصلهم من هزليات أبي الشمقمق وأبي الرقعمق وأحيانا مجونيات ابن سكرة وابن حجاج، ففتح ذلك لهم بابا واسعا من الاتباع، وأصبحت طريقة الجاحظ في

---

(١) تاريخ آداب العرب الرافعي ، مصطفى صادق ١٧/٣

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) إحسان عباس ص/١١١

السخرية مطلبا يحاولون بلوغه.

ومن اشهر السلكين لهذا السبيل الأديب أبو عبد الله محمد بن مسعود ويرى ابن بسام انه انتحى في هذه الطريقة منحى ابن حجاج بالعراق فقصر عنه، وقد كان له ابن توجه إلى الغرب، وخلع هنالك عذاره في البطالة والشراب، فكتب إليه أبوه رسالة هزلية يتهكم فيها به على نحو ما تهكم الجاحظ بأحمد بن عبد الوهاب في رسالة التربيع والتدوير. وتبدو المحاكاة في القطعة التالية احتذاء واضحا إذ قال: " وصف لي موقع الشمس في العين الحمئة، وكيف كان مخلصك من تلك البلاد الوابئة وكيف رأيت مدينة يونس وجنة رام، والبركان المونس وجزيرة الغنم، والزاوية، وصخرة العقاب وبئر الهاوية؟ وإيوان كسروان وكفر توثى." (١)

"أقول واني مهطع خوف صيحة ... يجيب بها كل إلى الله داعيا

أسير جبال وانتثار كواكب ... دنا من شروط الحشر ما كان نائيا ولكن ما حسبه هذان الشاعران الوفيان من " أشراط الساعة " لم يكن إلا تحولا صغيرا في تاريخ الناس. نعم مات المعتمد الذي استحق الرثاء وهو حي، ثم انصرف كل واحد منهما يطلب من جديد في ظل ممدوح جديد، لا من نسيان أدركهما وإنما هي طبيعة الحياة الإنسانية، تعثر بالموت لتجدد وتمضي في طريق الاستمرار. فأما ابن حمديس فلجأ إلى زيري بأفريقية، وأما ابن اللبانة فانحاز إلى مبشر ابن سليمان صاحب ميورقة. وبينما كان هذان الشاعران يذرفان الدموع على الصديق المحبوب كان شعراء آخرون يرحبون بالسلطان المرابطي في قصائد تحمل كل معاني الفرحة والاستبشار والشماتة معا. ولكن هذا الشعر الرومنطيقي الذي وقف يحيي العظمة الزائلة سيظل أقوى صورة حزينة في الأدب الأندلسي أثارها الوفاء لا الرجاء، وبعثتها صدمة الموت لا انفتاح الحياة! ولقد كانت المشكلة التي تلح على خيال الفرد الأندلسي بقوة الوضع الإنساني عامة والوضع الأندلسي القلق على حافة التغير والتشرد والموت، هي مشكلة المصير النهائي. وفي هذا المجال قدم الأدب الأندلسي نماذجه الكبرى من مراث متفلسفة وبكاء على المدن الزائلة، وتوجع للعظمة المندثرة، والصداقة المتلاشية، والجمال الآيل إلى نضوب.

١٠ – وصف الطبيعة:

كان وصف الطبيعة في العصر السابق نوعا من الاحتذاء لبعض أشعار." (٢)

"ابن سلام شكا في قصيدة أبي طالب التي روتها قريش في أشعارها والتي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم١، ومعنى ذلك أنهم نظروا في شعر قريش فقبلوا منه ورفضوا٢. فهم يفحصون ويحققون في شعر المدينة كما فحصوا وحققوا في شعر قريش وغيرها من القبائل.

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة كانتا ترويان منتحلا كثيرا وتنسبانه إلى الجاهليين، طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين، ومثل لها بحماد، ورأينا فيما مر بنا أشباها له في جناد وخلف الأحمر، وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي؛ ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زيف، وهم

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) إحسان عباس ص/١٥٠

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) إحسان عباس ص/١٩٣

رواة الأخبار والسير والقصص، من مثل ابن إسحاق راوي السيرة النبوية؛ إذ كانت تصنع له الأشعار ويدخلها في سيرته دون تحرز أو تحفظ، منطقا بالشعر العربي من لم ينطقوه من قوم عاد وثمود والعماليق وطسم وجديس.

ورفض ابن سلام والأصمعي وأضرابهما رواية الطائفتين جميعا؛ فلم يقبلوا شيئا مما يرويه أشباه حماد إلا أن يأتيهم من مصادر وثيقة، وكذلك لم يقبلوا شيئا مما يرويه ابن إسحاق لا عن الأمم البائدة فحسب؛ بل عن عرب الجاهلية أنفسهم؛ إلا أن يجدوه عند رواة أثبات. يقول ابن سلام: وقد ذكر أبا سفيان بن الحارث أحد شعراء قريش الذين كانوا يناقضون حسان بن ثابت وشعراء المدينة: إن شعره في الجاهلية "سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل" ثم علق على ذلك بقوله: "ولسنا نعد ما يروي ابن إسحاق له ولا لغيره شعرا، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم٣"؛ فهم كانوا يرفضون جملة ما يرويه ابن إسحاق وأشباهه من مثل عبيد بن شرية وينحونه عن طريقهم، يقول ابن سلام: "وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون٤" مما حمله رواة القصص والأخبار من شعر غث "لا خير فيه ولا حجة في عربيته ولا أدب يستفاد ولا معنى

---

١ ابن سلام: ص ٢٠٤.

٢ ابن سلام: ص ٢٠٥.

٣ ابن سلام: ص ٢٠٦.

٤ ابن سلام: ص ٤٠.." (١)

"تهربوا من عجزهم عن الخوض في ذلك الشعر إلى الطعن عليه، وحسبك أن تجد عالما ناقدا مثل ثعلب في هذا القرن يقول لبني نيبخت: " أنا أعاشر الكتاب كثيرا وخاصة أبا العباس ابن ثوابة واكثر ما يجري في مجالسهم شعر أبي تمام ولست أعلمه فاختاروا لي منه شيئا "، وكان ينشد البيت من شعره ويقول ما أراد بهذا؟ فيشرح له (١) . ولذلك رأى بعض المشتغلين بالشعر ممن لا يقفون موقف العداء من الشعر المحدث أن يبرزوه للناس بعمل مختارات منه، فكانت من ذلك كتب الاختيار التي ظهرت في ذلك القرن، وهي كتب لا تقوم على أسس نقدية صريحة، بل تعتمد على ذوق صاحبها، وذوقه يرتد إلى " مسبقات " ضمنية توجهه في أخذ ما يثبته وترك ما ينفيه، وليس لدينا من هذه الكتب ما يمكننا من استنباط طبيعتها العامة او طرق أصحابها، فمن ذلك كتاب " البارع " وهو اختيار شعر المحدثين لأبي عبد الله هارون بن علي. وكتاب اختيار الشعراء الكبير له أيضا وقد أتم منه شعر بشار وأبي العتاهية وأبي نواس (٢) . ولأحمد بن أبي طاهر طيفور عدد من كتب الاختيار منها: شعر بكر بن النطاح، ودعبل، ومسلم، والعتابي، ومنصور النمري، وأبي العتاهية، وبشار وغيرهم (٣) وللمبرد كتاب " الروضة " أختار فيه شعر المحدثين. وسيتسع باب الاختيار أيضا على سبيل **الاحتذاء** أو رغبة في تقريب الفائدة، ولكن دواعيه في القرن الثالث متصلة اتصالا وثيقا بالحركة النقدية.

---

(١) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي شوقي ضيف ص/١٦٥

(١) المصدر نفسه: ١٥ – ١٦.

(٢) الفهرست: ١٤٤.

(٣) الفهرست: ١٤٦ – ١٤٧.." [1]

"أخذه الشاعر الهذلي، فقصر عنه حين قال:

كأن قلوب الطير عند مبيتها ... نوى القسب باق يلقى بعض المآدب ١٤ – باب نقل المعنى إلى غيره: وهو أن ينقل المعنى عن وجهه الذي وجه له واللفظ عن طريقته التي سلك فيها إلى غيره وذلك صنعة راضة الكلام وصاغة المعاني وحذاق السراق، إخفاء للسرق **والاحتذاء** وتورية عن الاتباع والاقتفاء؟ وأكثر ما يطوع النقل في المعاني خاصة للمحدثين لأنهم فتحوا من نوار الكلام ما كان هاجدا: وأيقظوا من عيونه ما كان راقدا.

١٥ – باب تكافؤ السابق والسارق في الإساءة والتقصير، كقول الفرزدق:

فيا ليتنا كنا بعيرين لا نرى ... على منهل إلا نشل ونقذف وهو سيئ أخذه كثير عزة، فجاء به كذلك:

ألا ليتنا يا عز كنا لذي غنى ... بعيرين نرعى في الفلاة ونعزب ١٦ – باب من لطيف النظر في إخفاء السرقة: قال أوس بن حجر:

ألم تكسف الشمس والبدر ... والكواكب للقمر الواجب فنظر إلى هذا المعنى وأخفاه كل إخفاء النابغة الذبياني فقال:

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم ... وكيف يحصن والجبال جنوح ١٧ – باب كشف المعنى وإبرازه بزيادة، ومنه قول امرئ القيس:

كبكر المقاناة البياض بصفرة ... غذاه نمير الماء غير المحلل أخذه ذو الرمة فقال:." [2]

"الحزنة؟ وأما قولك من هذا الذي تعرى من الاتباع **والاحتذاء** وسلوك الطريق التي تقدم إليها غيره من الشعراء فلعمري إن الأمر على ما ذكرته. إلا أنه لا يحمد من الكلام ما كان غابا ولا من المعاني ما كان مرددا مكررا. فلا يتسمح الشاعر بان يكون جمهور شعره عند التصفح مسترقا ملصقا ومجموعا ملفقا، ولا أن يكثر الاعتماد في شعره ويتناصر السرق في كلامه " (١) العيب إذن ليس في السرقة وإنما في طغيانها أولا، وفي تقصير السارق عن مرتبة المسروق.

ومع أن المتنبي حسبما زعم الحاتمي أنكر أن تكون له معرفة بابي تمام والبحتري، نراه في المجلس الخامس، يورد نماذج من استعمارات أبي تمام وينحي عليها بالذم ويتهمه بالإحالة، وكأنه يردد أقوال خصوم أبي تمام، فيرد عليه الحاتمي بان يورد عيون شعر حبيب، ويدافع عن بعض استعاراته، ويتهم المتنبي بأنه تأثر حتى بالمعيب من أشعار أبي تمام واحتذاها، ثم يضع على لسان المتنبي السؤال الآتي: " هل تجد لأبي تمامكم هذا لو بحتريكم معنى اخترعاه " (٢) لتكون الإجابة على ذلك إيراد المعاني التي اخترعاها، وكأن هذا المجلس لم يقصد به المتنبي، وإنما قصد به إظهار تفوق الطائيين على كل شاعر، وتفوق أبي تمام على الجميع، وهذا داخل في ما رأيناه قبلا من تحمس الحاتمي للدفاع عن أبي تمام.

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب إحسان عباس ص/٧١

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب إحسان عباس ص/٢٦١

نظرة إجمالية في الموضحة

تلك هي الموضحة: وضحت موقف الحاتمي من قضايا النقد الأدبي، فأظهرت رأيه في حدود الشعر، وفي الاستعارة وفي عيوب المبنى الشعري وفي السرقة، وفي المفاضلة (أو الموازنة) بين المعاني المبتكرة لدى المتنبي من ناحية والطائيين من ناحية أخرى، ودلت على مدى اطلاع الحاتمي وعلى احتفاله الشديد بإبراز قدرته على الحفظ للأشعار واللغة، واستغلال هذه

---

(١) الموضحة: ١٤٩ – ١٥٠، ١٥١.

(٢) نفسه: ١٨٦.." (١)

"بكل الأخطاء التي يوردها الخصوم؛ وبما هو أكثر منها، في سبيل أن يعود هذا الفريق – في حالة من مراجعة الضمير – إلى تقبل ما يسميه فريق الأصدقاء فضائل، دون محاولة إحصائية كالتي حاولها الآمدي، وإنما لإقرار الحق، تكافؤا كانت النتيجة أو رجحانا للحسنات أو رجحانا للسيئات؛ لا فرق، ما دمنا قد وصلنا إلى أن نعترف بكفتي الميزان قائمتين على نحو من التقارب دون انتفاء إحداهما.

لماذا نجح الجرجاني في التوسط حيث أخفق الآمدي

وقد كان المتنبي نفسه – كما صوره الحاتمي – هو الذي فتح هذا الباب ليدخل منه القاضي الجرجاني، فهو يقول للحاتمي: " فهؤلاء المبرزون في حلبات الشعر السابقون إلى حلو القول ومره والذين وقع الإجماع على تقدمهم في ضروبه وفتحهم ما استغلق من أبوابه ليس منهم إلا من قد طعن على شعره ومن قد أخل بالإحسان مع تناصر إحسانه؟ الخ " (١) ؛ ويقول له في موضع آخر: " من هذا الذي تعرى من الاتباع **والاحتذاء** " (٢) ، ولو لم يكن الحاتمي مأخوذا بحدة الانفعال لتنبه إلى هذا الذي تنبه له القاضي الجرجاني، وهو موقف نساني ليس من الصعب أن يتنبه المرء له، ولكن ربما كان من الصعب تطبيقه. ولهذا نستطيع أن نقول إن الجرجاني أبدى قدرة فائقة في الموقف النقدي، فكان بذلك جديدا في تاريخ النقد، وبيان ذلك أننا حيث وجدنا النزاع النقدي قائما حول أديب واحد، أو دائرا في نطاق المفاضلة بين أديبين، فقد طالعنا دائما العجز عن التوسط بسبب الميل المتأصل في طبيعة الذوق، وقد حاول الآمدي أن يكون منصفا في الحكومة بين البحتري وأبي تمام فعجز عن ذلك رغما عنه، وما كان الآمدي إلا معلما للجرجاني، فنجح الآمدي نظريا فقط بينا نجح تلميذه في منهجه نظريا

---

(١) الموضحة: ٨٤.

(٢) الموضحة: ١٤٣.." (٢)

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب إحسان عباس ص/٢٦٩

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب إحسان عباس ص/٣١٦

النقد الأدبي في الأندلس

في القرن الخامس

ابتداء الشعر الأندلسي بمحاكاة المحدث أولا

تربى الذوق الأندلسي مدة طويلة على الشعر المحدث، شعر أبي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز وأبي العتاهية، وعلى الشعر الأندلسي نفسه الذي كان يترسم خطى الشعر المحدث المشرقي؛ ولكنا لا نسمع أن المعركة النقدية حول أبي تمام والبحتري انتقلت إلى الأندلسيين، إلا ما يقال من ان أبا حفص عمر بن يوسف الخيطي (– ٣٣٨) أحد أهل العلم بمعاني الشعر كان يتعصب للبحتري (١) ؛ فأما العصبية لهذا أو ذاك من شعراء المشرق كانت موجودة فأمر واضح من أخبار عن إعجاب هذا بابي تمام وإعجاب ذاك بأبي نواس. وعن **احتذاء** بعض الشعراء الأندلسي لطريقة مشرقية دون أخرى، وأما ان هذه العصبية أثمرت مواقف نقدية فشيء قد ضنت المصادر بالحديث عنه إن كان له وجود.

القالي وتلامذته والعودة إلى الشعر القديم

وقد ظل الذوق الأندلسي مأخوذا بالشعر حتى دخل القالي إلى قرطبة سنة ٣٣٠ جالبا معه دواوين الجاهلين والإسلاميين مقروءة مصححة على الأئمة، وأخذ الطلاب يتتلمذون عليه في دراستها، فوجد نهج القدامى ونهج المحدثين

---

(١) طبقات الزبيدي: ٣٣٠.." (١)

"(٤) انفتاح العقول المثقفة على شيء من المنطق والفلسفة بعد توفر قسط من الحرية النسبية في هذا المجال، ومن اثر ذلك ان تعمق النظرة إلى الظواهر الإنسانية ومن بينها الشعر، والأدب بعامة.

(٥) الأثر المشرقي: فالقرن الخامس في الأندلس جاء بعد النهضة النقدية في المشرق على يد ابن طباطبا والآمدي والحاتمي والجرجاني، وقد وصلت كتبهم إلى أيدي الأندلسيين ففتحت أمامهم مجال القول في النقد.

الوضع الأندلسي والشعر الأندلسي يوجهان النقد الأدبي

فمن طبيعة الوضع الأندلسي وطبيعة الشعر الأندلسي نفسه اتخذ النقد الأدبي وجودة وسماته: أما طبيعة الوضع الأندلسي فكانت تتمثل في **احتذاء** المشرق، فلما تنبهت الأندلس إلى شخصيتها في المجال العلمي والأدبي، كان النقد الأدبي دفاعا عن هذه الشخصية ضد الظلم أو التجاهل أو الاتهام بان الأندلس ليس فيها أدباء وشعراء؛ ومن طبيعة الوضع الأندلسي ان يكون الرابط فيها فقيها، وأن تكون الصبغة الخارجية للحياة دينية، ولذلك لم يستطع النقد أن يتخلص من الأحكام الأخلاقية؛ وكان مما يزيد الأندلسيين شعورا بذلك، تلك الفرقة التي نجمت في القرن الخامس، فقسمت الأندلس إلى دول متناحرة يذكى الشعر تناحرها، ويزين لكل أمير فيها أنه وحده ظل الله على الأرض، وكان لابد أن يكون الناقد انفذ بصرا من الشاعر الذي توجهه الحاجة وتحمله المبالغة إلى أقصاها؛ كان يبدو للناظر المتأمل أن الشعر إذن يقترن من ناحية بالضعة

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب إحسان عباس ص/٤٧٠

والتكسب، مثلما يقترن من ناحية أخرى بترسيخ جذور الانقسامات السياسية والضعف الناشئ عنها، ومن ثم فهو شيء غير أخلاقي إذا نظرنا إليه من زاوية مثالية؛ وقد يقال ألم تكن الحال كذلك في المشرق؟ والجواب على ذلك أن المشارقة نظروا إلى الظاهرة الشعرية – من حيث هي ظاهرة إنسانية –، وفصلوا بين الشعر والحياة نفسها، فاخذوا يتجادلون حول المشكلة – أو المشكلات." (١)

"ومن الغريب أن يذهب ابن خلدون هذا المذهب، وهو الذي قرر من قبل أن القرآن لا ينشأ عنه ملكة في الغالب " لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه **والاحتذاء** بها، وليس لهم ملكة في غير اساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام " (١) ، ولعل وجه الغرابة يتضاءل حين نجد ابن خلدون يخص الاقتصار على القرآن وحده بهذا الحكم، فأما إذا اجتمع إلى القرآن محفوظات أخرى فإنها قادرة على تكوين ملكة في اللسان العربي.

طريقة النظم وصورة القوالب في البناء

وأما الرأي الثاني الناجم عن هذه النظرية في المحفوظ فهو تصور ابن خلدون لطريقة النظم: بعد أن يرتاض المرء في حفظ الشعر، ترسخ في ذهنه قوالب معينة، فإذا أراد أن ينظم قصيدة فما عليه إلا أن يستحضر القالب في نفسه، ثم أن يملاه بالقوالب الصغيرة أو التراكيب، " فغن مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبنئ فيه أو المنوال الذي ينسج عليه، فإن خرج عن القالب في بنائه أو على المنوال في نسجه كان فاسدا " (٢) ، وأقل ما يمكن ان يقال في هذا التصور – حتى ولو كان قائما على واقع الحال يومئذ – انه وضع الشعر في صورة العمل اليدوي لا من حيث إتقان الصنعة –كما هي الحال في تمثيلات عبد القاهر – بل من حيث تشابه الصنعتين.

وما دام الحفظ هو الذي يعين على تصور القوالب، فإن الطريق إلى إتقان الشعر لا يتم بدراسة النحو أو البيان أو العروض؛ نعم إن الشاعر لابد من أن يراعي قوانين هذه العلوم ولكن شاعريته لا تتكون بالاقتصار على

---

(١) المقدمة: ١٢٤٢.

(٢) المقدمة: ١٢٩٣.." (٢)

"وإنما سميت أتان لان هذه الصخرة تلامس بالطحلب فشبهت بالأتان التي املاست فأكثر لحمها. والأتان أيضا مكان على حافة البئر سمي بذلك لاملاسه، ونراكب الطحلب عليه. وإنما يعني أبي إذا زوحمت لم يقدر إزالتي عن موضعي كما أن هذه الصخرة لا تزال عن موضعها يريد لا أزال عن شر في وفضلي عند المساماة والمفاخرة. أو يعني أبي إذا حاربت لم انحزم. وقوله) فإذا نطقت فإنني الجوزاء (فإن المنجمين يزعمون أن الجوزاء من البروج التي تختص بالكتاب. فهو وصاحبه عطارد يدلان على المنطق والبراعة فيقول: أنا الجوزاء، أي: مني تستفاد البراعة، ومني يقتبس الفضل كما أن الجوزاء تعطي

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب إحسان عباس ص/٤٧٣

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب إحسان عباس ص/٦٢٣

من يولد به البراعة والنطق وإلى هذا أشار بقوله:

ومني استفاد الناس كل غريبة ... فجازوا بترك الذم إن لم يكن حمد

شيم الليالي أن تشكك ناقتي ... صدري بها أفضى أم البيداء

قال الشيخ رحمه الله: يقول ناقتي هذه تشككها الليالي، فلا تدري أصدري أفضى أم البيداء التي هي سائرة فيها وأراد ألف الاستفهام فحذفها وذلك كثير موجود، وقد حملوا على ذلك قول الأخطل:

كذبتك عينك أم رأيت بواسط ... غلس الظلام من الرباب خيالا

كأنه قال: أكذبتك عينك وقوله) أفضى (يحمل أن يكون اسما وفعلا. فإذا كان اسما فهو على معنى التفضيل كأنه قال: أصدري أشد سعة أم البيداء، وإذا كان فعلا فهو من أفضى إلى الشيء يفضي كأنه قال صدري يفضي بهذه الناقة. أي يصيرها في الفضاء أم البيداء.

فتبينت تسئد مسئدا في نيها ... إسادها في المهمه الإنضاء

قال ابن جني: الاساد إغذاذ السير، والني الشحم، يقال نوت الناقة تنوي نواية. والمهمه: الأرض الواسعة. والأنضاء مصدر أنضاه إذا هزله وأذابه والمعنى. فتبيت هذه الناقة تسرع السير في شحمها. أي يهزلها الانضاء لشدة السير. كما تسرع هي في قطع الأرض. أي كما قطعت الأرض قطعت الأرض شحمها، على **احتذاء** مثال هذا. هكذا حصلته عنه وقت قراءتي عليه شعره.

ونصب) مسئدا (على الحال منها، والإنضاء مرفوع بمسئد والعائد عليها من هذه الحال الهاء في نيها. وإسآدها منصوب على المصدر، والناصب له) مسئدا (لا يسئد وتقديره، فتبيت هذه الناقة تسئد مسئدا الإنضاء في نيها إسآدا مثل إسآدها هي في المهمه. ونظير هذا: بيت هند: تصلي مصليا عمرو في دارها صلاتها في المسجد أي تبيت تصلي على هذه الحال. فتسئد فعل الإنضاء، وجرى حالا على الناقة لما تعلق به من ضميرها الذي في نيها كما تقول:) مررت بهند واقفا عندها عمرو (.

بيني وبين أبي علي مثله ... شم الجبال ومثلهن رجاء

قال ابن جني: نصب مثلهن لأنه كان في الأصل في وصف النكرة التي هي رجاء أراد ورجاء مثلهن. ونعت النكرة المرفوعة إذا قدم عليها نصب على الحال كما تقول فيها قائما رجل ومثله: لعزة موحشا طلل ومعنى البيت: بيني وبين الممدوح جبال مثله في العظم، وهو في نظائر اللفظ تعظيم للممدوح لأنه شبهه بالجبال، يريد حلمه ورزانته كقول مسلم:

كبيرهم لا تقوم الراسيات له ... حلما وطفلهم في هدي مكتهل

أي: بيننا هذه الجبال، ورجاء مني له مثلها تعظيما لرجائه وتأكيدا له. وقال الأحسائي: شم الجبال مثله في الحلم والرفعة والشدة.

ورفع مثله على الابتداء والخبر " بيني وبين أبي علي " وشم الجبال بدل من مثله، ولا يجوز نصب مثلهن ولا مثله على الحال، لأن مثله ليس صفة لشم الجبال فينصب إذا تقدم. لأن الجماعة لا توصف بالواحد، ومثلهن عطف على الجملة، والتقدير

ورجاء مثلهن، فقدم حرف العطف وهو الرجاء، ونيته تقديم رجاء وتأخير مثلهن. ومثله قولهم) إن في الدار لزيدا (وحكم اللازم أن تكون في الخبر مؤخرة، وليس للاسم فيها حظ، فلما قدم الخبر بقيت اللام في موضعها في التأخير، ووقع الاسم بعدها، والنية تقديمه، فاللازم في الحقيقة للخبر لا للاسم. وكذلك واو العطف في البيت لما كانت للرجاء وتقدمت الصفة والواو قبلها، لم يعتد بتقديمها، وأجريت في الاتباع مجراها متأخرة لوقوع الواو، مقتضية لتقديم الموصوف، لأن حرف العطف لا يكون في الصفة، إنما هو للموصوف، والصفة تابعة ولولا الواو لنصبت الصفة المتقدمة على النكرة، كقوله: لعزة موحشا طلله.." (١)

"يا دار در عليك إرهام الندى ... واهتز روضك في الثرى فترأدا

وكسيت من خلع الحيا مستأسدا ... أنفا يغادر روضه مستأسدا

أو مثل قوله:

سرت تستجير الدمع خوف ندى غد ... وعاد قتادا عندها كل مرقد

فأذرى لها الاشفاق دمعا موردا ... من الدم يجري فوق خد مورد

-وقد أحسن حين ابتدأ فقال وافر:

نوار في صواحبها نوار ... كما فاجاك سرب أو صوار

يكذب حاسد فنأت قلوب ... أطاعت واشيا ونأت ديار

-وقوله كامل:

ما في وقوفك ساعة من باس ... تقضي ذمام الأربع الأدراس

فعل عينك أن تجود بمائها ... والدمع منه مغزل ومواس

-وقوله خفيف:

ما عهدنا كذا نحيب المشوق ... كيف آفة المعشوق

-وقوله كامل:

دمن الم بها فقال سلام ... كم حل عقدة صبره الألمام

ومن اقتضاباته العجيبة قوله طويل:

لهان علينا أن نقول وتفعلا ... ونذكر بعض القول منك وتفضلا

-ومن قوله أيضا مقتضيا كامل:

ألحق أبلج والسيوف عوار ... فحذار من أسد العرين حذار

ومما تقدم فيه كل أحد، في حسن التخلص إلى المدح قوله بسيط:

إساءة الحادثات استبطي نفقا ... فقد أظنك إحسان بن حسان

---

(١) تفسير أبيات المعاني من شعر أبي الطيب المتنبي أبو مرشد المعري ص/٤

-وقوله طويل:

إذا العيس لاقت بي أبا دلف فقد ... تقطه ما بيني وبين النوائب

-وقوله بسيط:

لم يجتمع قط في مصر ولا طرف ... محمد بن أبي مروان والنوب

-وقوله، المنقطع ونه كل أحد في هذا المعنى كاملي:

إن الذي خلق الخلائق قاتها ... أقواتها لتصرف الأحراس

فالأرض، معروف السماء قرى لها ... وبنو الرجاء لهم بنو العباس

القوم ظل الله اسكن دينه ... فيهم وهم جبل الملوك الراسي

-وقوله أيضا كامل:

عامي وعام العيس بين وديقة ... مسجورة وتنوفة صهيود

حتى أغادر كل يوم بالفلا ... للطير عيدا من بنات العيد

هيهات منها روضة محمودة ... حتى تحل بأحمد المحمود

بمعرس العرب الذي وجدت به ... أمن المروع وعصرة المنجود

-ومن أبدع ابتداءاته قوله كامل:

أسقى طلولهم أجش هزيم ... وعددت عليهم نضرة ونعيم

جادت معاهدهم عهاد سحابة ... ما عهدها عند الديار ذميم

ثم تخلص إلى المدح فقال -وأحسن كل الإحسان:

لا والذي هو عالم أن النوى ... صبر وأن أبا الحسين كريم

ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت ... نفسي على إلف سواك تحوم

ثم عاد إلى المدح فقال:

لمحمد بن الهيثم بن شبانة ... مجد إلى جنب السماك مقيم

ملك إذا نسب الندى من ملتقى ... طرفيه، فهو له أخ وحميم

-وأبو تمام الذي وصف القوافي، بما لا يستطيع أحد وصفها بمثله فقال طويل:

فإن أنا لم يحمدك عني صاغرا ... عدوك، فاعلم أنني غير حامد

بسياحة تنساق من غير سائق ... وتنقاد في الآفاق من غير قائد

محببة ما إن تزال ترى لها ... إلى كل أفق وافدا غير وافد

-وهو الذي قال أيضا كامل:

جاءتك من نظم اللسان قصيدة ... سمطان فيها اللؤلؤ المكنون

إنسية وحشية كثرت بها ... حركات أهل الأرض وهي سكون

ينبوعها خضل، وحلي قريضها ... حلي الهدى ونسيجها موضوم

أما المعاني فهي أبكار إذا ... نضت، ولكن القوافي عون

-وقال أيضا وأبدع في وصفها كامل:

لم تلق حلية منطق إلا وقد ... سبقت سوابقها إليك جيادي

أبقين في أعناق مجدك جواهرا ... أبقى من الأطواق في الأجياد

فهل يستطيع أحد أن ينسب هذا، إلى شيء من السرق **والاحتذاء؟** وهل يستطيع مماثلته بشيء من أشعار البحتري؟ وأشعار المحدثين في عصره أو قبله، فعيي عن الجواب، قصورا عن الحجة، واحجم إحجام عاجز عن المساجلة وحكمت لي الجماعة عليه بالفلج والغلبة ولم ينصرف من المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام على جميع المحدثين، في صنعة البديع، واختراع المعاني.

وكان يوما مشهودا.

١٨٨ ومن بديع الخروج قول علي بن الجهم طويل:

وسائرة ترتاد أرضا تجودها ... شغلت بها عينا قليلا هجودها

أتتنا بها ريح الصبا فكأنها ... فتاة تزجيها عجوز تقودها." [١]

"ألا قاتل الله النوى كيف ... أصبحت ألح عليها يا بثين صريرها

٨٨٦- ومن هذا الباب قول عنترة العبسي [وافر] :

وخيل قد دلفت لها بخيل ... عليها الأسد تهتصر اهتصارا

فقال عمرو بن معدي كرب [وافر] :

وخيل قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجميع

وقالت الخنساء [وافر] :

وخيل قد دلفت لها بخيل ... فدارت بين كبشيها رحاها

وقال أعرابي [وافر] :

وخيل قد دلفت لها بخيل ... ترى فرسانها مثل الأسود

فلو اجتهد هؤلاء عند قصدهم الأخبار بما أخبروا به من هذا الوصف، أن يوردوه بغير هذه العبارة، وفي هذه العروض، ما استطاعوا، لأن اللفظ يضطرهم، واعتماد العبارة الشريفة يقود أعنتهم، فرب معان تختص بألفاظ شريفة لا يمكن تعديها إلى ما هو أشرف منها.

---

(١) حلية المحاضرة ابن المظفر الحاتمي ص/٢٦

٨٨٧- ومن هذا الضرب قول عمرو بن كلثوم [وافر] :

تركنا الخيل عاكفة عليه ... مقلدة أعنتها المنونا

فقال عنترة [وافر] :

تركنا الخيل عاكفة عليه ... كما تردى إلى العرس البواني

فقال أعشى باهلة [وافر] :

تركنا الطير عاكفة عليه ... .على الدوار

فقال العديل بن الفرخ [وافر] :

تركنا تركنا الطير عاكفة عليه ... و...........تمتع تعيق

.... الأخدعا......... ... . يعود.........

٨٨٨- قال أبو علي [أجمع] علماء الشعر، ونقاد الكلام، وأرباب الصناعة أن [من أخذ] معنى، أو لفظا، أو جمعا لهما، وقع الحكم على أن المبتدع [منهما] أعلاهما سنا، وأقدمهما موتا، وأن المتبع هو المتأخر منهما، لاستقرار ذلك في الأكثر، فإن جمعهما عصر، ألحق بأولاهما بالإحسان، وأشدها تناسبا في الكلام، فإن وقع إشكال في ذلك ترك لهما، ولم يقض لأحدهما بالاختراع دون صاحبه، فأما الحكم في **الاحتذاء** والاتباع، فإن المحتذي إذا تناول المعنى فكشف قناعه، وأصفى شربه، وطوى سربه وأرهف لفظه، وأحسن العبارة عنه، واختار الوزن الرشيق له، حتى يكون بالأسماع أشد علقا، وفي النفوس ألطف مسلكا، كان أحق به، ولا سيما إذا أخفى مسراه وأسر مجراه، فإن اتفق له نقله من مذهب ذهبه شاعره إلى آخر، أو عكسه إن كان تشبيها، أو تتميمه إن كان ناقصا، [لحق به] تظهر القدرة، وينطق بالفضل لسان لصناعة، ويقع الحكم للشاعر بالبلاغ والإبانة، وعلى أن للسابق للمعاني والمفترع عذر الألفاظ فضيلته التي لا يدفع عنها، ومزيتها التي لابد من الاعتراف له بها، إذ كان معلم معالمها، وقادح زنادها، ومطلع كواكبها في آفاقها.

وسأورد من أمثلة ذلك ما تفتقر إليه المذاكرة وينتسب إلى قاعدة كتابي هذا، بحول الله وقوته.

٨٨٩-قال أبو دؤاد يصف فرسا [هزج] :

يزين البيت مربوطا ... ويشفى قرم الركب

فأخذه عدي بن زيد فقال وأحسن [رمل] :

مستخفين بلا أزوادهم ... ثقة بالمهر من غير عدم

قوله "من غير عدم" زيادة لطيفة.

٨٩٠- ومن هذا الباب قول وثيمة بن موسى المضري [طويل] :

يبصبص للأضياف كلبي تألفا ... وإن رام نبحا لم يعش في بني مضر

فأخذه حسان، فأحسن وتقدم عليه فقال [كامل] :

يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل

٨٩١- وقال بشر [بن حجام العبسي] :

إذا ... في فرك معالها ... رعابيل يخضبن التراب من الدم

فأخذه كثير فأحسن في قوله:

يدعن ... يطأن فيه ... كباقي النصل من أثر الخضاب

٨٩٢- وقال الأعشى [متقارب] :

تراقب من أيمن الجانبي ... ن بالكف مستحصدا قد مرن

فأخذه بعض المتقدمين فقال وأحسن [طويل] :

فتقسم طرف العين شطرا أمامها ... وشطرا تراه خيفة السوط أزورا

٨٩٣- وقال النابغة الذبياني [كامل] :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

وهذا أول من افترع هذا المعنى، فأخذه أبو حية النميري فأحسن كل الإحسان [طويل] :

فألقت قناعا دونه الشمس واتقت ... بأحسن موصولين كف ومعصم

٨٩٤- وقال طرفة وهو أول من نطق بهذا المعنى [طويل] :

وعجزاء دقت بالجناح كأنها ... مع الصبح شيخ في بجاد مقنع

فأخذه النابغة فأحسن فقال يصف النسور [طويل] :

تراهن خلف القوم خزرا عيونها ... جلوس الشيوخ في ثياب المرانب." (١)

"جفت عيني عن التغميض حتى ... كأن جفونها عنها قصار

يروعه السرار بكل شيء ... مخافة أن يكون به السرار

فلم يتهيأ لي، أن ألحق بهذا القول، "قال: فصار الرجل إلى بشار فقال له: قلت أحسن بيت، ثم أفسدته بالبيت الثاني، قال بشار: "أردت أن ألحق المجنون في قوله [وافر] :

كأن القلب ليلة قيل يغدي ... بليلي العامرية أو يراح

قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح

لها فرخان في أيك بقفر ... على غصن تميله الرياح

إذا سمعا هبوب الريح نصا ... وقد أودى بأمهم المناح

فلا في الليل نالت ما ترجى ... ولا في الصبح كان لها براح

"فلم أستطع أن أقول ذلك".

---

(١) حلية المحاضرة ابن المظفر الحاتمي ص/١٠١

٩١٥ أخبرنا محمد بن يحيى عن عون بن محمد الكندي قال: أخبرنا إسحاق بن [إبراهيم] الموصلي وقال: ما أنشدت الأصمعي بيتا قط إلا [وأنشدني] مثله، حتى كأنه جعله معدا لذلك، قال: فأنشدني الأصمعي [بيتي..

قتلتك أخت [بني ... ... قبله.. [هو] اها

وأعا [رها...... ... .غيرك ودها وهواها

قال: ثم [قال] الأصمعي [ففي هذين كان] متبعا و [لولا أنه] قد جاء بالمعنى في بيتين لكان أحق [بالمعنى] قال: وقد قال آخر فقصر في هذا المعنى [طويل] :

جننا على ليلى وجنت بغيرنا ... وأخرى بنا مجنونة ما نريدها

٩١٦ ومن أحسن التكافؤ قول الأعشى [طويل] :

وأرعن مثل الطود غير إشابة ... تناجز أولاه ولم يتصرم

[فقال] غيره وأحسن، وإن كان تبعه [طويل] :

بجيش لهام يحسب الطرف أنهم ... وقوف لحاج والركاب تملج

٩١٧ وقول الأعشى يصف ناقته [كامل] :

بجلالة سرج كأن بدفها ... هرا إذا انتعل المطي ظلالها

فقال [الآخر] وتجاوز ذكر الهر وتشبيهها في سراحها بحلولها بدفها، وزاد في تشبيه الظل زيادة بارعة، سد بها ذلك الخلل، وأحسن عنها العبارة [طويل] :

وقد أنعلتها الشمس ظلالا كأنه ... قلوص حبارى ومنها قد تمددا

باب

نقل المعنى إلى غيره

٩١٨ وهذا باب ينقل فيه المعنى عن وجهه الذي وجه له، واللفظ عن طريقه التي سلك به، فيها إلى غيره، وذلك صنعة راصة الكلام، وصاغة المعاني، وحذاق السراق، إخفاء للسرق، **والاحتذاء**، وتورية عن الاتباع والاقتفاء.

٩١٩ وسأكتب في هذا الباب من هذين النوعين ما يكون دلالة على استنباط أساليبه، ومعرفة ضروبه وأفانينه.

٩٢٠ وأكثر ما يطوع النقل في المعاني خاصة، للمحدثين، لأنهم فتحوا من نوار الكلام ما كان هامدا، وأيقظوا من عيونه ما كان راقدا، وأجروا من معينه ما كان راكدا وأضحكوا من مباسمه ما كان قاطبا، وحلوا من أجياده ما كان عاطلا.

٩٢١ فمن أحسن النقل قول امرئ القيس في صفة الثقة بالفرس [طويل] :

إذا ما ركبنا قال ولدان أهلنا ... تعالوا إلى أن يأتي الصيد نحطب

فنقل هذا المعنى ابن مقبل إلى صفة القدح فقال [طويل] :

إذا استخبرته من معد عصابة ... غدا ربه قبل المفيضين يقدح

فوصف ثقته بقوته، فأخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال [رجز] :

قد وثق القوم له بما طلب ... فهو إذا جلى لصيد واضطرب

عروا سكاكينهم من القرب

٩٢٢ وقال امرؤ القيس يصف فرسا [طويل] :

طويل عريض مطمئن كأنه ... بأسفل ذي سيفين سرحة مرق ب

فنقلته الخنساء إلى المدح، وزادت فيه زيادة لطيفة فقالت [بسيط] :

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

فنقله أبو نواس إلى وصف الخمر فقال [رمل] :

فاهتدى ساري الظلام بها ... كاهتداء السفج بالعلم

٩٢٣ ومن النقل قول امرئ القيس [طويل] :

فظل العذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهداب الدمقس المفتل

وجرى على السبيل المجنون فقال [طويل] :

أشارت بموشوم كأن بنانه ... كهداب ريط من دمقس مفتل

باب

تكافؤ السابق والسارق في الإساءة والتقصير

٩٢٤ وهذا باب يجري ونظائره في كتابنا الموسوم "بالحالي والعاطل في نقد الشعر" وقد أوردت هاهنا دررا يستدل بها على أمثالها.

٩٢٥ قال الفرزدق، وأساء الأمنية [طويل] :

فياليتنا كنا بعيرين لا نجد ... على منهل إلا نشل ونقذف." [١]

"جواز هذه الحركة المشوبة مع الكسرة والضمة الصريحتين: أن ما فيها من الإشمام لا يعتد به ولا ينظر إلى قدره وإنما هو كإمالة الفتحة إلى الكسرة في نحو: سالم وحاتم. وأنت تجيزهما في شعر واحد مع قادم وغانم ولا تحفل بما بين الحركتين بل إذا جاز سالم مع قادم وسلاح مع صباح وقنا مع فتى كان اجتماع ادعينا مع يشرينا ونحو ذلك أسهل وأسوغ.

---

(١) حلية المحاضرة ابن المظفر الحاتمي ص/١٠٤

وإنما كان أسهل من قبل أن الفتحة إذا نحي بها قبل الألف نحو الكسرة انتحيت أيضا بالألف بعدها نحو الياء لا بد من ذلك من حيث كانت الألف ناشئة عن الحركة قبلها على **احتذاء** وموازنة اتباع. فإذا أملت الفتحة والألف فهناك عملان في الحركة والحرف جميعا كما ترى.

وأما الياء في ادعينا وقيل وبيع فإنها وإن شيبت الحركة قبلها خالصة البتة وغير مشوبة شوب ما قبلها وجاز ذلك فيها من حيث كانت الطاقة حاملة والقدرة ناهضة بالنطق بالياء الساكنة بعد الضمة الناصعة فكيف بها بعد الكسرة التي إنما اعتلت بأن انتحي بها نحو الضمة. والعمل في ذلك خلس خفي.)

وأما الألف الخالصة فليس في الطوق أن ينطق بها بعد غير الفتحة الخالصة ففي سالم إذن فإذا جاز اجتماع ما فيه تغييران نحو سالم وسلاح مع قادم وصباح كان اجتماع ما فيه تغيير واحد مع ما لا تغيير فيه نحو: قيل واغزي وادعي مع قيل وبيع وحيينا واسقينا أحجى بالجواز فاعرف ذلك.

وإذا جاز اجتماع هذا الخلاف في المجرى وهو أغلظ حرمة وأمس مذمة من." (١)

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي عبد القادر البغدادي ٣٠٥/٨

٤٩٢ السكاكين

– بين أحمد بن يوسف والمأمون

٤٩٤ لأبي الفتح كشاجم يصف سكينا سرقت منه." (١)

"محببة ما إن تزال ترى لها ... إلى كل أفق واحدا غير وافد

مخلقة لما ترد أذن سامع ... فتصدر إلا عن يمين وشاهد

والذى قال أيضا فى صفتها

جاءتك من نظم اللسان قلادة ... سمطان فيها اللؤلؤ المكنون

إنسية وحشية كثرت بها ... حركات أهل الأرض وهى سكون

حذيت حذاء الحضرمية أرهفت ... وأجادها التخصير والتلسين

ينبوعها خضل، وحلى قريضها ... حلى الهدى، ونسيجها موضون «١»

أحذاكها صنع الضمير يمده ... حسب إذا نضب الكلام معين «٢»

أما المعانى فهى أبكار إذا ... نصت، ولكن القوافى عون

وقد أبدع فى وصفها فقال:

لم أبق حلية منطق إلا وقد ... سبقت سوابقها إليك جيادى

أبقين فى أعناق جودك جوهرا ... أبقى من الأطواق فى الأجياد

هل يستطيع أحد أن ينسب هذا أو شيئا منه إلى السرق والاحتذاء؟ وهل يستطيع مماثلته بشىء من شعر البحترى، أو أشعار المحدثين فى عصره ومن قبله؟

فعى عن الجواب قصورا، وأحجم عن المساجلة تقصيرا، وحكمت الجماعة لى بالقهر، وعليه بالنصر، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبى تمام فى صنعة البديع واختراع المعانى على جميع المحدثين. وكان يوما مشهودا.

[أثر الغناء والجمال]

وقال ثمامة بن أشرس: كنت عند المأمون يوما، فاستأذن الغلام لعمير المأمونى فكرهت ذلك، ورأى المأمون الكراهية فى وجهى، فقال: يا ثمامة، ما بك؟." (٢)

"فلو كان لابد من كلام يوجد مع الكتابة لأجل الفائدة الحاصلة بها لوجب ذلك في جميع ما ذكرناه وذلك محال لا يحسن الخلاف فيه. ومما يدل على أن التلاوة للقرآن لا يوجد معها شيء آخر: أن القائل بسم الله الرحمن الرحيم متعوذا بها غير قاصد إلى تلاوة القرآن يوجد الكلام من فعله فلو كان إذا قصد حاكيا لكلام الله تعالى وجد كلام آخر لكان إذا قصد حكاية كلام كل من تلا القرآن يوجد كلامهم أجمع عند قصده فيقوى إدراكنا للكلام من حيث نسمع كلاما كثيرا في هذه

(١) زهر الآداب وثمر الألباب الحُصري القيرواني ٢/٦٢٥

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب الحُصري القيرواني ٣/٦٦٢

الحال وفي غيرها شيئا واحدا وهذا واضح الفساد. وقد تعلق أبو علي وأبو الهذيل فيما ذهبا إليه بأنه: لو كان القارئ لا يسمع منه إلا ما فعله دون كلام الله تعالى لبطل التحدي وخرج من كونه معجزا لأنه لو كانت الحكاية غير المحكي وهي مثله لكان كل من فعل القرآن قد أتى بمثله على الحقيقة والتحدي يضمن أنهم لا يأتون بمثله على الحقيقة.

والجواب عن هذا: أن التحدي إنما وقع بفعل مثل القرآن على الابتداء دون **الاحتذاء** والتالي للقرآن قد أتى بمثله محتذيا فلا يكون بذلك معارضا. وعلى هذا أيضا كان يقع التحدي من العرب بعضها بعضا بالأشعار على سبيل الابتداء والأمر في هذا واضح.

وتعلق أبو علي فيما ذهب إليه ثانيا: بأن القرآن ليس بقبيح على وجه من الوجوه وقد ثبت أن قراءته تقبح من الجنب والحائض ودل ذلك على أن القراءة شيء والقرآن شيء. والجواب عن هذا أن معنى قولنا إن القرآن ليس بقبيح بوجه من الوجوه هو أن ما فعله تعالى وأنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم هذه صفته ولا يمنع أن تكون التلاوة التي هي فعل التالي والحكاية التي هي فعل الحاكي. ويسمى بالتعارف قرآنا في بعض الأحوال ويرجع القبح إلى أفعال العباد دون القرآن على الحقيقة.

وقد أعتمد أبو الهذيل وأبو علي أيضا على قوله تبارك وتعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ ١

---

١ سورة التوبة الآية: ٦.." (١)

"يقال: ألوت في الأمر آلو، أي قصرت. وجعل التقصير للطعن على المجاز.

ترى الخيل على آثا ... ر مهري في السنا العالي

ولا تبقى صروف الده ... ر إنسانا على حال

قوله " على آثار مهري " موضعه نصب على الحال، والمعنى تابعين لي. و " في السنا " في موضع المفعول الثاني لترى، ومعنى في السنا قال بعضهم: النور العالي: يريد به بريق السلاح، كأنهم يقدمونه ويتقون به. وهذا معنى. وأجود منه وأعلى أن يكون المعنى: ترى الفرسان إذا تبعت أثري ووطئت عقبي، في مجد عال قاهر، له نور يستضاء به. ويكون هذا في طريقة بيت الأعشى:

كل سيرضى بأن يلقى له تبعا

وشرحه بأنهم يرضون برياستي عليهم، ويعدون اتباعهم لمراسمي، **واحتذاءهم** لآثاري مما يعلو به سناهم، ويسمو به علاهم. وقوله " ولا تبقي صروف الدهر " تسلية لنفسه فيما صار إليه من ضعف بعد قوة، وهرم بعد شبيبة، حتى رضي بأدنى المنزلتين في ممارسة الحرب، ووقف عند أقصر السعيين في ملابسة الضرب والطعن. وقوله " على حال " في موضع الصفة لإنسانا، وتعلق على بمضمر، كأنه قال: لا تبقى حوادث الدهر إنسانا قائما، أو ثابتا على حال، بل تبدل وتحول، وكما

---

(١) سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي ص/٤٧

تعطي ترتجع.

تفتيت بها إذ ك ... ره الشكة أمثالي

كجيب الدفنس الورها ... ء ريعت بعد إجفال

الشكة: ما يلبس من السلاح، وقد شك الرجل في السلاح، إذا لبسه يشك شكا، وهو شاك. يقول: تكلفت بهذه الطعنة وإحداثها فعل الفتيان وأبليت بها بلاء الشبان، في وقت يكره فيه حمل السلاح أمثالي من الرجال الشيوخ، فكيف." (١)

"في اكتساب الخير، واستجلاب الحمد. والسرو: سخاء في مروة. ويقال: سرو الرجال يسرو، وهو سري من قوم سراة. وكأن هذا سلك مسلك الآخرحين قال:

وأن ثراء المال ينفع ربه ... ويثني عليه الحمد وهو مذمم

ألم تر لقمان أوصى بنيه ... وأوصيت عمرا ونعم الوصي

بني بدا خب نجوى الرجال ... فكن عند سرك خب النجى

وسرك ما كان عند أمرىء ... وسر الثلاثة غير الخفى

معنى (ألم تر) : اعلم. ويريد التنبيه على أن له في وصاته ابنه اقتداء بالحكماء قبله، فكما ساغ للقمان أن يوصي ابنه ساغ للصلتان أن يوصي عمرا ولده. والمحمود في قوله (نعم الوصى) محذوف، كأنه قال: ونعم الوصى هو. وهذا ترغيب منه لعمرو في **الاحتذاء** بما يرسم له. وقوله (بني بدا خب نجوى الرجال) فالخب: المكر بكسر الخاء، والخب بفتحها: المكار. ومثله رجل صب. والنجوى: مصدر، وهو يستعمل فيما يتحدث فيه اثنان على طريق الستر والكتمان. فيقول: إذا ناجيت صاحبا لك فكن خبا فيما تودعه من سرك، فإن نجوى الرجال إذا بدا خبها، ومكر أربابها فيها، عادت وبالا وفضيحة. والنجي يقع على الواحد والجمع، وكذلك النجوى. وفي القرآنإذ هم نجوى.

وقوله (وسرك ما كان عند امرىء) ذهب فيه مذهب من قال:

إذا جاوز الاثنين سر فإنه ... ببث وتكثير الوشاة قمين

وقد قيل في (الاثنين) من هذا البيت أراد به الشفتين. وكأن من فسر هذا التفسير يريد: لاتتفش سرك إلى أحد.

آخر باب الأدب، والحمد لله وحده، والصلاة على نبيه محمد وآله بعده.." (٢)

"النوع العاشر الاستكثار من حفظ الأشعار الرائقة

، خصوصا أشعار العرب وما توفرت دواعي العلماء بها على اختياره: كالحماسة، والمفضليات، والأصمعيات، وديوان هذيل، وما أشبه ذلك؛ وفهم معانيها واستكشاف غوامضها، والتوفر على مطالعة شروحها؛ ويلتحق بذلك شعر المولدين من العرب، وهم الذين كانوا في أول الإسلام. كجرير والفرزدق، والأخطل وغيرهم؛ وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المفلقين من المحدثين: كأبي تمام، ومسلم بن الوليد، والبحتري، وابن الرومي، والمتنبي ونحوهم.

---

(١) شرح ديوان الحماسة المرزوقي ص/٣٨٢

(٢) شرح ديوان الحماسة المرزوقي ص/٨٥٠

وفيه مقصدان

المقصد الأول في بيان أحتياج الكاتب إلى ذلك

أما شعر العرب والمولدين، فلما في ذلك من غزارة المواد، وصحة الاستشهاد، وكثرة النقل، وصقل مرآة العقل، وانتزاع الأمثال، **والاحتذاء** في اختراع المعاني على أصح مثال، والاطلاع على أصول اللغة وشواهدها، والاضطلاع من نوادر العربية وشواردها. وقد كان الصدر الأول يعتنون بذلك غاية الاعتناء: قال محمد بن سلام «١» عن بعض مشايخه «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر» . وذكر صاحب «الريحان والريعان» عن سعيد بن المسيب «٢» أنه قال: كان أبو بكر وعمر وعلي يجيدون الشعر، وعلي أشعر الثلاثة. قال: وكان عمر بن الخطاب يقول افضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها بين يدي حاجته يستعطف بها الكريم، ويستنزل." [١]

"وبكتابه قدوة **واحتذاء**، فالله نسأل الخيرة في قضائه، والبركة فيما يقوم «١» بناؤك عليه.

ومنه: تصل رحما، وتعقد سببا، وتحدث نسبا، وتجدد وصلة، وتؤكد ألفة.

رقعة: من خصه الله تعالى بما خص به سيدي، من طهارة الأعراق والأنساب، وشرف الأخلاق والآداب، وأفرده باجتماع خلال الخير المتفرقة في الأنام، وعطر بثنائه ملابس الأيام، رغب الأحرار في مواصلته، وهان عليهم بذل الوجه في اختطاب ممازجته، والتماس مواشجته ومناسبته، وجدير من رغب إليه، وطلب ما لديه، واختير للمشابكة في الولد واللحمه، والمشاركة في المال والنعمة- أن يجيب ولا يمنع، ويصل ولا يقطع، مصدقا لأمل من أفرده بارتياده، وتوحده باعتماده، عارفا حق ابتدائه بالثقة التي لا يجوز رد من اعتقدها، ولا صد من حسن ظنها، وقد علم الله تعالى أن [مضى] للمملوك مدة طويلة [وهو يبحث] متطلبا مربعا للتأهل، مؤثرا لعمارة المنزل، راغبا في سكن تطمئن النفس إليه، وتعتمد في الفواتح والمصاير عليه، وكلما عرض للمملوك بيت أباه، أو ذكر له جناب قطع عنه رجاه، لعدم بعض الشروط التي يريدها فيه، وتعذرها عليه، فلما قرع سمعه ذكر سيدي علم أنه الغاية التي لا مرقى بعدها، والنهاية التي لا مطمح وراءها، وأنه قد ظفر بالثقة، ووصل إلى الأمنية، ووجد من يجمع الخلال المرضية ويزيد، ويحوز من الفضل الشأو البعيد، وكتب المملوك هذه الرقعة خاطبا كريمته فلانة [ليكون لها] كالغمد الضامن للمهند، والجلد الحافظ للمجلد، ويكون لمولانا كالولد البر بأبيه، ولأخيها كالصنو الشفيق على أخيه، فإن رأى سيدي أن يتدبر ما كتبه المملوك ويتسمع من توكيد رقعته، ويجيبه إلى ما سأله فله علو الرأي في ذلك إن شاء الله تعالى.." [٢]

"علم البديع

مدخل

...

علم البديع:

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١/٣١٩

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٩/١٦١

البديع لغة: الجديد المخترع لا على مثال سابق ولا **احتذاء** متقدم، تقول: بدع الشيء وأبدعه، فهو مبدع، وفي التنزيل: ﴿قل ما كنت بدعا من الرسل﴾ ١.

واصطلاحا: علم تعرف به الوجوه والمزايا التي تكسب الكلام حسنا وقبولا بعد رعاية المطابقة لمتقضى الحال التي يورد فيها ووضوح الدلالة على ما عرفت في العلمين السالفين٢.

"واضعه" أول من دون قواعده ووضع أصوله عبد الله بن المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٧٤هـ، فقد استقصى ما في الشعر من المحسنات وألف كتابا ترجمه باسم "البديع" ذكر فيه سبعة عشر نوعا وقال: "ما جمع قبلي فنون البديع أحد ولا سبقني إلى تأليفه مؤلف ومن رأى إضافة شيء من المحاسن إليه فله اختياره".

ثم ألف معاصره جعفر بن قدامة كتابا سماه "نقد قدامة" ذكر فيه ثلاثة عشر نوعا زيادة على ما أملاه ابن المعتز.

ثم جاءت التآليف تترى، فألف فيه أبو هلال العسكري وجمع سبعة وثلاثين نوعا، ثم ابن رشيق القيرواني فجمع مثلها في كتاب "العمدة" ثم جاء شرف الدين النيفاشي فبلغ بها السبعين.

ثم ألفت البديعيات فألف زكي الدين بن أبي الأصبع بديعيته، وأوصل الأنواع إلى التسعين، ثم جاء بعده صفي الدين الحلي فأوصلها إلى مائة وأربعين، ونظم قصيدة ميمية في مديح النبي عليه السلام، وذكر اسم كل نوع في بيت.

---

١ سورة الأحقاف الآية: ٩.

٢ أي: فالمستفاد من علم البديع الحسن العرض، والمستفاد من العلمين السالفين الحسن الذاتي.." (١)

"قداستها ومهابتها، وتملك نفس المشاعر فترتفع بك عن مستوى الحياة الدنيا إلى سماوات الخلد. ذلك بأن شوقي يهديك المعنى الذي كانت تلتمسه نفسك فلا تقع عليه، ويرسم أمامك بوضوح وقوة وسمو خيال ونبل عاطفة كل ما ينبض به قلبك، ويهتز له فؤادك"١.

ولم يكتف شوقي بهذا بل هو كما قدمت لك في غير هذا الموضع قد إبداع الإبداع كله في وصف الطبيعة المصرية، وإظهار جمالها، وفتن بها إلى حد العبادة.

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

واستعرض تاريخ بلاده في خلال الحكم الإسلامي بقصائد رائعة، ووضع روايات عدة في تاريخ مصر القديم والحديث، وأفرد جزءا خاصا من شعره لمجد العرب والإسلام، فشوقي من هذه الوجهة هو شاعر القومية المصرية وهو أسبق من كل هؤلاء الأدباء إلى وضع النموذج الصحيح، في الأسلوب العالي الممتاز في الأدب القومي. إن هذه الصيحات التي جأر بها هيكل كان يقصد بها المزيد من شوقي، **والاحتذاء** حذو شوقي من هؤلاء الشعراء الذين لم يحركهم جمال بلادهم. ولا شك أن شوقي وهيكل قد تأثرا في هذه الدعوة بما رأيا وقرءوا في الأدب الأوربي، ولعل "تاييس" لأناتول فرانس، و"كليوباترا" لإميل مورو "moreau" – وقد مثلتها سارة برنارد في سنة ١٨٩٠ وشوقي بعد طالب في باريس بعض ما أوحي إليه بهذا.

---

(١) علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع المراغي، أحمد بن مصطفى ص/٣١٨

لقد كانت هذه النزعة على أشدها في فرنسا منذ أواسط القرن التاسع عشر، وظهرت عشرات الكتب: والروايات، والمسرحيات، والقصائد في تلك الحقبة تدعو إلى تمجيد الطبيعة وإلى استلهام التاريخ، وقد ظلت كذلك حتى الحرب العالمية الأولى، وقد عاصر شوقي وهيكل٢ كثيرا من هؤلاء الأدباء والشعراء الذين أولعوا بالطبيعة والتاريخ، وشاهدا مسرحياتهم٣، فتأثرا بهم كل التأثر.

---

١ المصدر السابق.

٢ أخذ هيكل البكالوريا سنة ١٩٠٥ والحقوق سنة ١٩٠٩، وسافر إلى بارس سنة ١٩٠٩ ومكث بها حتى سنة ١٩١٣ حين نال شهادة الدكتوراه في الاقتصاد السياسي.

٣ إذا أردت ثبتا بالكتب والمسرحيات والروايات الفرنسية التي تنزع هذه النزعة فارجع إلى mareel brau nschvig - notre في كتابه القيم. litterature etudee dans les textes t, 2 p. 773, 733 778.." (١)

"سيضيف إلى البحث ما سيعثر عليه من أخطاء أو سرقات، وسيلحقه بما كتب وهو حين يقرر في كتابه الموازنة أنه سيوازن بين شعر الشاعرين فيما يتفقان فيه من الموضوع، والوزن، والقافية، وإعرابها، ويعود فيجعل الموضوع فقط هو أساس الموازنة، وهو يكرر كثيرا من آرائه ونقده.

على أن كتاب الموازنة للآمدي من أجل الكتب التي ظهرت في النقد والموازنة. ولقد وقع هذا الكتاب أساس نقد الشعر والموازنة بين الشعراء. وهو بحق من أمهات الكتب التي ظهرت في النقد الأدبي وأصوله، وهو أيضا مصدر من مصادر البيان العربي، ومرجع من مراجعه، وقد اعتمد عليه البيان، مع أن الموازنة ليس كتاب بيان وبلاغة، وإنما هو نقد أدبي، وموازنة بين شاعرين، وليس بحثا في البيان العربي وبلاغته.

والكتاب مقسم إلى خمسة أقسام وكل قسم يسميه المؤلف جزء: فالجزء الأول يورد فيه الآمدي آراء النقاد في شعر "أبي تمام والبحتري" ويستقصي رأي المتعصبين لهذا أو ذاك، ويطلق لهذا الفريق الحرية في مجادلة ذلك الفريق، والجزء الثاني، ذكر فيه أخطاء أبي تمام من المعاني والألفاظ ... والجزء الثالث: يذكر فيه قبح استعارته ومستهجن جناسه ومستكره طباقه، وما ورد من شعره في سوء النظم وتعقيد التركيب، ووحشي الألفاظ مما خلا من بهاء الرونق وعذوبة السمع. ومما جعل التعسف على ديباجته. وظهرت مجاجة التصنيع في أعطاله. ويذكر ما وقع فيه من كثرة الزحافات، التي ضيعت موسيقى أوزانه الشعرية، حتى قال فيه دعبل: إن كلامه بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر الموزون، ونلاحظ أن الجزء الرابع من الكتاب يحلل فيه الآمدي بإيجاز عيوب شعر البحتري مكتفيا من ذلك ببيان بعض سرقاته، مع نفي الكثير منها عنه، بدعوى أن **الاحتذاء** كان في معان لا خاصية، حتى ينسب إليه السرقة فيها.

---

(١) في الأدب الحديث عمر الدسوقي ٢/٢٥١

أما الجزء الخامس فيوازن فيه بين الشاعرين في المعاني. التي اتفق موضوعها في شعرهما، ويبدأ تلك الموازنة بكلمة فيها صعوبة نقد الشعر، وأن لهذا الميدان أبطاله ممن عنوا بكثرة النظر في الشعر." (١)

"١١- أوصاف الديار:

وهكذا يستمر الآمدي في موازنته بين الشاعرين على هذا النحو، ولا يتزيد عقب كل بيت منهما إلا بقوله: وهذا ابتداء جيد، أو حسن أو صالح أو غاية في البراعة أو رديء وما شبه ذلك. ونسأل الناقد. هل الموازنة بين البيتين من الشعر هي كل ما فيها أن يكتب الناقد هذه الكلمة أو تلك عقب البيت: جيد أو رديء؟

ثم إن الكاتب تحت عنوان "الموازنة. وليس فيه بابا إلا هذا فقط وازن فيه الناقد على قدر باعه بين الشاعرين في افتتاح القصائد. والباقي في سرقات أبي تمام وأغلاطه وإحالاته. ومرذول شعره، وساقط كلامه وهكذا، ولكن الدكتور خفاجي يعتذر عنه في ذلك ويقول١ : لقد جاء على ذلك تكرار الآراء عند المؤلف ونقده في غضون الصفحات المتباعدة وهو ما عليه أغلب التأليف العربية، فلا داعي للوم الآمدي وحده والنسخ التي بين أيدينا من كتاب الموازنة، والتي طبعت في مصر ناقصة، فليس فيها من الموازنة بين الشاعرين إلا الموازنة في معنى واحد من معنيهما. وهو بكاء الديار وما يتبعه".

وقولنا: ربما كان العذر للآمدي إذا صح القول بأن النسخة ناقصة وقد يكون في الناقص موازنة بين الشاعرين في اتجاهات أخرى الأسلوب، والابتكار والمعاني، والألفاظ والتشبيه وإصابة الأمثال وغير ذلك من **احتذاء** القدماء في نهج عمود الشعر، وتناول القصيدة العربية، ولذلك قال الدكتور خفاجي في كتابه أصول النقد١.

"ونقد الآمدي لشعر الطائيين ليس نقدا للروح الشعرية. بما فيها من جوانب "شتى ومن مظاهر متنوعة، وآراء ذهب إليها الشاعر، وشخصية فرضت نفسها على إنتاجه، وحياة تلون هذا الإنتاج بلونها"..." (٢)

"الإبداع الفني للشاعر، الذي به يستحق المعنى وينفرد بالصورة ولو كان المعنى قد ملت منه الأسماع، وتلاقت عنده العقول.

والاطمئنان الإمام لما وصل إليه، وهو غاية ما وصل إليه النقاد العرب، أخذ بعض قضية التأثر في كتابه دلائل الإعجاز بصورة أوسع وأبعد عمقا، وقد بناها على فكرة النظم وعلاقات الألفاظ التي اعتمد عليه الكتاب كل الاعتماد.

ويربط التأثر بمشكلة النظم، وضحت أنواع التأثر وانكشفت معالمه وظهر الفرق بين السرقة والأخذ وبين **الاحتذاء** والتوليد والتأثر.

وأساس الاختلاف في مفاهيم أنواع التأثر، يرجع عند المتقدمين على الإمام إلى قضية اللفظ والمعنى، فمن نصر اللفظ منهم جعل السرقة في التصوير والتعبير، ما لم يولد الشاعر في المعنى أو يستوحي أو يتأثر بالاتجاه العام فقط، فإن فعل واحدة منها، لا يتهم بالسرقة، ويحكم على تصويره بقدر درجة جودته، ومدى التباعد بين السابق واللاحق، والمعنى عندهم يستوي فيه كل الناس فالمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ فالشعر صياغة

---

(١) في النقد الأدبي علي علي صبح ص/١٠

(٢) في النقد الأدبي علي علي صبح ص/٧١

وضرب من التصوير كما قال الجاحظ في رده على أبي عمرو الشيباني نصر المعنى١.
ومن نصر المعنى جعله بحال السرقة والتأثر فيه وإن فرق أنصاره بين المعنى المشترك العام والمعنى الخاص إلا أن المعنى عنده هو أساس الشاعرين أو اختلافهما فيه وانفراد أحدهما به عن الآخر وإن اختلف التصوير، وتباينت التراكيب وتغاير النظم، ومن أنصار المعنى أبو عمرو الشيباني وابن قتيبة ٢.
وبانتصار عبد القاهر لفكرة النظم، وصل إلى الغاية في تحديد أنواع التأثر والسرقات وقرب فيها إلى الكمال، ورد على أنصار المعنى وكشف عن أخطائهم في انتصارهم للمعنى وحده، الذي اختنق بسببه النقد لفترة طويلة وانحط شأن التصوير والنظم والجمال والتأليف ولهذا فهو يؤيد الجاحظ الذي انتصر للفظ والصياغة، لأن المعاني في الطريقة تعرفها الناس جميعا، لا فرق بين حضري وبدوي، وعربي وعجمي.

---

١ الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون جـ ١ ص ٤٠.
٢ الشعر والشعراء أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ص٧ وما بعدها.." (١)

"ولكنه رد على أنصار اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا يشترك مع غيره في النظم المتلاحم والتركيب المتسق، وبين الإمام أن كلا من الفريقين: نصير المعنى وحده، ونصير اللفظ وحده كان سببا في اختناق النقد لفترة طويلة، وإنهما أخطأ من شأن التصوير والنظم وجمال التأليف.
وأنصار اللفظ مستقلا يرون أن الشاعر إذا تأثر بآخر في ألفاظه –الألفاظ المفردة– يعد آخذا ومحتذيا لا مبتدئا، ولو أتت ألفاظه المأخوذة من غيره على نظم يختلف عما تأثر به، لأن خيال الشيء عندهم هو الشيء نفسه وهم في ذلك لا يفرقون بين السرقة والاحتذاء، وإن كان كلاهما أخذ، فهم كما يراهم الإمام: "مثل من يرى خيال الشيء فيحسبه الشيء، وذلك أنهم قد اعتدوا في كل أمرهم على النسق الذي يرونه في الألفاظ، وجعلوا ألا يحتفلون بغيره، ولا يعولون في الفصاحة على شيء سواء حتى انتهوا إلى أن زعموا أن من عمد إلى شعر فصبح فقرأه ونطق بألفاظه على النسق الذي وضعها الشاعر عليهم، كان قد أتى به الشاعر في فصاحته وبلاغته، إلا أنهم زعموا أنه يكون في إتيانه به، محتذيا لا مبتدئا١.
ويوضح لهم الإمام خطأهم في اهتمامهم باللفظ كلفظ، فيذكر الاعتبار الصحيح في استعمال الألفاظ وهو النظم، فمن تأثر بنظم آخر وعلى مثاله يعد أخذا، ومن لم يتاثر بالنظم وإن تأثر بالألفاظ لا يعد آخذا بل محتذيا، فالمتأثر بالألفاظ من غير ارتباطها بالنسق النفسي والمعنوى غلط وإفحاش. يقول الإمام عبد القاهر:
"ونحن إذا تأملنا وجدنا الذي يكون في الألفاظ من تقديم شيء فيها على شيء إنما يقع في النفس، أنه نسق إذا اعتبرنا ما توخى من معاني النحو في معانيها فأما مع ترك ذلك فلا يقع ولا يتصور مجال ٢".
وعلى ذلك لا تصح المفاضلة بين العبارتين التي وقع فيها التأثر والتأثير في الألفاظ مفردة، ولكنها تقع المفاضلة بين نظم وآخر يختلف عنه وإن اتفق في الألفاظ، فلكل منها صورة تخالف صورة الآخر ألبتة، ويسمى ذلك عند الإمام عبد القاهر

---

(١) في النقد الأدبي علي علي صبح ص/٢٣٥

تأثرا.

---

١ دلائل الإعجاز: عبد القاهر ٤١٧ تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي طأولي ١٩٦٩

٢ المرجع السابق ٤١٧.." [١]

"ثم يقرر الإمام عبد القاهر المصطلح الدقيق في التأثر، للاحتذاء ويفرق بينه وبين السرقة والأخذ فالاحتذاء عنده أن ينظم شاعر معنى في أسلوب، ثم يتناول شاعر آخر هذا النظم في نظم من عنده لذلك أنكر ابن الرومي ادعاء البحتري بالسرقة والأخذ في بيت أبي نواس:

ولم أدر من هم غير ما شهدت لهم ... بشرقي ساباط الديار البسابس

فقد أخذه الشاعر من قول أبي خراش الهذلي:

لم أدر من ألقي عليه رداءه ... سوى أنه قد سل من ماجد محصي

وقال ابن الرومي لأبي نواس، فقد اختلف المعنى فيهما، قال أبو هلال العسكري الذي حكى الخبر، فهذا من حلى الأخذ والحذو مع أن حذوا الكلام حذوا واحدا، وأما الأخذ والسرقة عنده، فهو ألا يكون في المعنى جديدا، حينما ينظم شاعرا على مثال آخر، ويتفق معه في النظم والمعنى ويكون الفضل للسابق.

يقول الإمام: واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه، أن يبدأ الشاعر في معنى له وغرض أسلوبا -والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه- فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره فيشبه بمن يقطع من أديمة فعلا على مثال فعل قد قطعها صاحبها فيقال: قد احتذى على مثاله ... وحكى العسكري في صنعه الشعر أن ابن الرومي قال: قال لي البحتري: قول أبي نواس، ثم ذكر البيتين السابقين. قال فقلت: قد اختلف المعنى فقال أما ترى حذوا واحدا، وهذا الذي كتبت من حلي الأخذ في الحذو ١".

ثم يفصل الإمام المعنى بين الأخذ والمأخوذ فيجعله قسمين:

أ- قسم أنت ترى فيه أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا، وترى الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتعجب.

وهو القسم الأول الذي يكون المعنى في أحد البيتين غفلا، وفي الآخر مصورا مصنوعا، ويكون ذلك إما لأن متأخرا قصر عن متقدم، وإما لأن هدى متأخر لشيء لم يهتد إليه المتقدم ومثال ذلك قول المتنبي:

إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض ... ومن فوقها والبأس والكرم المحض

---

١ المرجع السابق ٤١٨، ٤١٩.." [٢]

---

(١) في النقد الأدبي علي علي صبح ص/٢٣٦

(٢) في النقد الأدبي علي علي صبح ص/٢٣٩

"مع قول البحتري:

ظللنا نعود الجود من وعكك الذي ... وجدت وقلنا اعتل عضو من المجد١

ب- وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع في المعنى، وصور من الأمثلة لهذا القسم قول لبيد:

وأكذب النفس إذا حدثتها ... إن صدق النفس يزري بالأمل

مع قول نافع بن لقيط:

وإذا صدقت النفس لم تترك لها ... أملا، ويأمل ما اشتهى المكذوب٢

وبهذا كله يحسم الإمام القضية، ويبين في غير خفاء الأخذ القبيح والأخذ الحسن ويميز بين السرقة والأخذ وبين **الاحتذاء**. **والاحتذاء** هو المحمود عنده، وهو الذي ينبغي أن يرعاه الشعراء لا الأخذ والسرقة، وهما مذمومان عنده، **والاحتذاء** وإن كان فيه أخذ إلا أن الشاعر قد جدد في المأخوذ، وابتكر في بعض أجزائه، بينما الأخذ في السرقة تجديد فيه ولا ابتكار.

وفي **الاحتذاء** نوعان: -

أحدهما: التأثر وقد ذكره الآمدي حينما مدح البحتري في معانيه التي أخذها من أستاذه أبي تمام وصاغها من طبعه، ولم ينكر عليه ذلك فقال: غير منكر لشاعرين متناسبين من أهل بالدين متقاربين أن يتفقا في كثير من المعاني٣".

والنوع الثاني: وهو التوليد: وضحه ابن رشيق بقوله "والتوليد أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه، أو يزيد فيه زيادة، فلذلك يسمى التوليد، وليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره، ولا يقال له أيضا سرقة، إذ كان ليس آخذا على وجه٤".

إذن فالسرقة والأخذ هما أحسن أنواع التأثر لما فيهما من التقليد وانعدام شخصية الشاعر، والتكرار الذي يبعث الملل في النفس، ويأخذها بالضيق والسأم.

وإما **الاحتذاء** فهو أشرف أنواع التأثر لأن فيه خلقا وابتكارا في جانب، وتقليدا واتباعا في جانب آخر، وتبعا لذلك ربما يسمو متأخر في تصويره عن متقدم حذا حذوه.

---

١ المرجع السابق ٤٣١، ٤٣٢.

٢ المرجع السابق ٤٣٢، ٤٤٠.

٣ الموازنة للامدي ٤٥ نشره محمود توفيق الكتبي ص حجازي بالقاهرة ١٩٤٤ م.

٤ العمدة: ابن رشيق التحقيق السابق جـ ١ ص ٢٦٣.." (١)

"صفاته تعالى

هو الله الظاهر بآياته. ألباطن بذاته. القريب برحمته. ألبعيد بعزته. ألكريم بآلائه. ألعظيم بكبريائه. أقادر فلا يرام. والمليك الذي له الأقضية والأحكام. الذي تفرد بالبقاء. وتوحد بالعزة السناء. واستأثر بأحاسن الأسماء. ودل على قدرته بخلق

---

(١) في النقد الأدبي علي علي صبح ص/٢٤٠

الأرض والسماء. كان ولا مكان ولا زمان ولا بينيان. ولا ملك ولا إنسان. فأنشأ المعدوم إبداعا. وأحدث ما لم يكن إنشاء واختراعا. جل وتعالى فيما خلق عن احتذاء صورة واستدعاء مشورة. واقتفاء رسم ومثال. وافتقار إلى نظر قياس واستدلال. ففي كل ما أبدع وصنع وفطر وقدر دليل على أنه الواحد بلا ظهير والقادر بلا نصير. والعالم بلا تبصير وتذكير. والحكيم بلا رؤية وتفكير. والحي الذي لا يموت وبيده الخير. وهو على كل شيء قدير. رفع السماء عبرة للنظار. وعلة للظلم والأنوار. وسببا للغيوث والأمطار. وحياة للمحول والقفار. ومعاشا للوحوش والأطيار. ووضع الأرض مهادا للأبدان. وقرارا للحيوان. وفراشا للجنوب والمضاجع. وبساطا للمكاسب والمنافع. وذلولا لطلاب الرزق وأرباب الصنائع. وأشخص الجبال أوتادا راسية وأعلاما بادية. وعيونا جارية. وأرحاما لأجنة الأعلاق حاوية. وجعل البحار مغيض لفضول الأنهار. ومغاير لسيول." (١)

"يرعيك سمعا أي يصغي إليك. يقال: أرعني سمعك أي استمع مني واجعل سمعك راعيا، أو مراعيا لقولي. وقيل معناه: اجعل سمعك مرعى لكلامي ومكانا له والداعي: أراد به الداعي حقيقة.

يقول: إنه يصغي إلى المستغيث سمعا وعادته الإصغاء إلى كل من يدعوه، ولكنه عن الفحش والقبيح أصم: أي يعرض عنه، ولا يصغى إليه، فكأنه أصم لا يسمع ذلك.

يريك من خلقه غرائبه ... في مجده كيف يخلق النسم؟!

يريك: تعدى إلى ثلاثة مفاعيل، أحدها. الكاف، والثاني غرائبه، والثالث كيف، وهو في موضع النصب، وهو في معنى يعلمك. والنسم: جمع نسمة، وهي النفس.

يقول: يريك هذا الممدوح إذا نظرت إليه وهو يخلق غرائب كرمه، ويبتدع محاسن شيمه، التي لم يسبق إليها، كيف يخلق الله الخلق على غير احتذاء ولا مثال. يعني: أنه يصطنع من أهلكه البؤس، حتى صار كالمعدوم فيحسن إليه وينعم عليه، حتى يحسن حاله؛ فكأنه أوجده بعد عدمه، فإذا رأيت ذلك، استدللت به على قدرة الله تعالى، على إيجاد الشيء بعد أن لم يكن.

ملت إلى من يكاد بينكما ... إن كنتما السائلين ينقسم

يخاطب صاحبه ويقول: عدلت إلى زيارة من لو جئتما يا صاحبي تسألانه نفسه يقسمها بينكما، فيكون نصفه مع أحدكما، ونصفه مع الآخر؛ ليبلغ كل واحد إلى أمله. وأصله قول أبي تمام:

لو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

من بعد ما صيغ من مواهبه ... لمن أحب الشنوف والخدم

الشنف: ما يجعل في أعلى الأذن، والقرط: ما يجعل في أسفله. والخدم: جمع خدمة: وهي الخلخال.

يقول: لم أقصده إلا بعد أن سبقت إلي مواهبه، وأغناني بها، وصيغ لي منها لمن أحبه من امرأتي وجاريتي ومحبوبتي ومن يتصل إلى الشنوف والخلاخيل، وفي هذا إشارة إلى أنه قد أغناه بمواهبه قبل وصوله إليه؛ لأن الإنسان لا يصوغ أنواع الحلي إلا

---

(١) مجاني الأدب في حدائق العرب لويس شيخو ٦/٥

بعد الغنى والكفاف.

ما بذلت ما به يجود يد ... ولا تهدي لما يقول فم

تقديره: ما بذلت يد ما به بجود، ولا يهتدي فم لما يقول.

ما الأولى نافية، والثانية، والثالثة، بمعنى: الذي.

يقول منبها على فضله وعطاياه، وفصاحته: لم يبذل إنسي الذي يجود به هذا الممدوح، ولم يهتد فم أحد للقول الذي يقول هو، لما يختص به من زيادة الجود والفصاحة.

بنو العفرني محطة الأس ... د ولكن رماحها الأجم

العفرني: اسم من أسماء الأسد، والأنثى: عفرناة. ومحطة: جد الممدوح. وبنو: رفع بالابتداء، والعفرني: جر بالإضافة. ومحطة: بدل من العفرني، وهو في موضع الجر. والأسد: جر لأنه نعت لمحطة، وجميع ذلك كاسم واحد مبتدأ، والأسد خبر الابتداء، كما تقول: بنو أبي عبد الله حمزة الظريف، منطلقون.

يقول: إن محطة جدهم، هو الأسد، وبنوه الأسود، إذ أولاد الأسود تكون أسودا، ثم فصل بينهم وبين الأسد الحقيقي، الذي هو من البهائم، وبين أن رماحهم قائمة لهم مقام الأجم للأسود.

قوم بلوغ الغلام عندهم ... طعن نحور الكماة لا الحلم

يقول: هم قوم لا يعدون فيهم بالغا، إلا إذا طعن من نحور الشجعان، فأما مجرد الاحتلام، في ملابسة الحروب فلا يعدونه بلوغا. ومثله لبعض العرب:

لعمرك ما الفتيان أن تنبت اللحى ... ولكن فتى الفتيان كل فتى بدا

كأنما يولد الندى معهم ... لا صغر عاذر ولا هرم

يقول: إنهم عرفوا بالجود، فكأنهم ولدوا على تركة أحدهم منه، سواء كان طفلا، أو شيخا، فلا يعذرهم صغرهم ولا كبرهم.

إذا تولوا عداوة كشفوا ... وإن تولوا صنيعة كتموا

يقول: إنهم عادوا أظهروا العداوة لقوتهم وجرأتهم، وإن أعطو أحدا، أخفوا ذلك؛ ليكون أدل على الكرم وأبعد من الامتنان.

تظن من فقدك اعتدادهم ... أنهم أنعموا وما علموا

يقول: تظن أيها المخاطب من قلة اعتدادهم بالنعم وامتنانهم بها، أنهم أنعموا غافلين، وما علموا بما أنعموا، ومثله لابن الرومي:

أيها السيد الذي لا تنفك ... ك أياديه عندنا موصولة

فهي معروفة لدينا وإن كا ... نت لديه مجحودة مجهولة

إن برقوا فالحتوف حاضرة ... أو نطقوا فالصواب والحكم

برقوا: أي أوعدوا، أو برق: إذا لمع.." (١)

---

(١) معجز أحمد أبو العلاء المعري ص/٧٩

"روى الأول بالكسر، والثاني بالفتح. وقد روى بالكسر، من ذلك يقول داعيا له: لا عدم يماك المشيع، سيف الدولة المشيع أو لا عدم سف الدولة غلامه المشيع، وهذا أيضا يتضمن الدعاء لسيف الدولة. ثم قال: ليت الرياح كانت تفعل مثل فعله، لأن أفعاله تزيد على فعل الرياح.

بكون ضرا وبكرت تنفع

وسجسج أنت وهن زعزع

وواحد أنت وهن أربع

وأنت نبع والملوك خروع

يقول مفضلا له على الرياح: إنها تضر، وتنفع أنت. وقيل: إنه اتفق هبوب الريح الشديدة فذكر ذلك.

والسجسج: اللينة. والزعزع: الشديدة. يعني: هي شديدة صعبة، وأنت نفع خالص كالريح السجسج.

والرياح أربع: جنوب، وشمال، وصبا، ودبور، وأنت واحد تقوم مقامها أجمع. وقيل: أراد لا نظير له والريح له نظير.

والنبع: شجر صلب يتخذ منه القسى، والخروع: شجر ضعيف. شبه شجر التين. يعني أنت أفضل من الملوك، كالنبع أفضل من الخروع.

وقال أيضا يمدحه وهو سائر يريد الرقة، وقد اشتد المطر بموضع يعرف بالثديين.

لعيني كل يوم منك حظ ... تحير منه في أمر عجاب

العجاب: أبلغ من العجيب. والهاء في منه للحظ.

يقول: إن لعيني منك كل يوم حظا! يتحير من ذلك الحظ، ويتعجب منه.

حمالة ذا الحسام على حسام ... وموقع ذا السحاب على سحاب

حمالة: أي ذلك العجاب هو حمالة. هذا هو العجاب.

يقول: أرى أمرا عجيبا وهو حمالة السيف، وقعت على السيف، الذي هو سيف الدولة، لأنه سيف تقلد سيفا، وكذلك وقوع السحاب الذي هو المطر، على سيف الدولة، الذي هو كالسحاب جودا.

وزاد المطر فقال فيه أيضا

تجف الأرض من هذا الرباب ... ويخلق ما كساها من ثياب

الرباب: السحاب الأبيض، وأراد تجف الأرض من مطر هذا الرباب فحذف المضاف.

يقول: تجف الأرض من هذا المطر، وكذلك يخلق ما كسى هذا المطر الأرض من أثواب الربيع وأنواع الأزهار، وألوان الأنوار.

وما يتفك منك الدهر رطبا ... ولا يتفك غيثك في انسكاب

يقول: إن الأرض تجف من هذا المطر، ولا يزال الدهر من سحاب جودك رطبا ولا يزال جودك متصلا، فيبقى أثره على الدهر.

تسايرك السواري والغوادي ... مسايرة الأحباء الطراب

تسايرك: أي تسير معك. والطراب: جمع طرب، وهو الذي استخفه الشوق.

يقول: إن السحب التي تأتي ليلا والتي تأتي غدوة تسير معك حيث سرت، كما يسير الحبيب مع حبيبه، إذا طرب إليه واستخفه الشوق نحوه.

تفيد الجود منك فتحتذيه ... وتعجز عن خلائقك العذاب

تفيد: أي تستفيد، والتاء للسواري والغوادي. يقال: أفاد واستفاد **والاحتذاء**: أن تفعل مثل ما فعل صاحبك. ويروى فتحتديه: أي تطلب حدى جودك.

يقول: إن السحاب تسايرك حتى تستفيد الجود منك، وتحذو على حذوك من الجود، فهي وإن استفادت عنك الجود **احتذاء**، تعجز عن أخلاقك العذبة.

وأجمل سيف الدولة ذكره وهو يسايره في طريق آمد فقال.

أنا بالوشاة إذا ذكرتك أشبه ... تأتي الندى ويذاع عنك فتكره

يقول: أنا إذا ذكرت جودك، وأثنيت عليك بإحسانك كنت بمنزلة من ينم عليك، ويفشي أسرارك؛ لأنك تفضل على الناس، وتستره، وتكره أن يظهر ذلك منك، فأنا إذا أظهرته كنت في حيز الواشين بك.

وإذا رأيتك دون عرض عارضا ... أيقنت أن الله يبغي نصره

يقول: إذا رأيتك عارضا دون عرض إنسان، وذابا عنه تيقنت أن الله تعالى ينصره على أعدائه.

وإنما قال ذلك؛ لأن سيف الدولة أحسن ذكره.

فقال: إذا أثنيت علي، لم أبال بمن عابني؛ وعلمت أن الله تعالى ينصرني على من يطعن علي ذنبا من عرضي.

وفي قافية البيتين اضطراب لأنا إن جعلناها رائية، فالهاء تكون وصلا، وهذا لا يجوز؛ لأن الهاء أصل في البيت الأول، وهو قوله: فتكره وفي الثاني ضمير وهو نصره فالبيت الأول هائي والثاني رائي، وإن جعلناها هائية فالثانية تكون رائية لما بينا: أن الهاء أصل في الأول، ووصل في الثاني. والكلام في هذا المعنى يطول، وموضعه كتاب القوافي، وقيل القافية رائية وقد جاء مثل هذا في الشعر القديم، وقد تركت ذكره لئلا يطول.

وزاد سيف الدولة في وصفه فقال له.

رب نجيع بسيف الدولة انسفكا ... ورب قافية غاظت به ملكا." (١)

"وصفاء خضرتها، وتطعم عذوبة طعمها ورطوبتها وبردها، لا سيما إذا أكلت، فخير أن تؤكل مع هذا الخل الثقيف، انظر اليه، فما معولي في دفع الصفراء إلا عليه؟. " (١) في هذا المقطع يبلغ **احتذاء** المقامة المضيرية ذروته.

في هذا الإطار، وجدت الحكمة اليونانية والفكر اليوناني مجالها الرحب، فقد كان ابن بطلان طبيبا شديد التعلق بما ثقفه من أصول الطب اليوناني والمعارف اليونانية جملة، فلذا أفرغ في مقامته كثيرا من الآراء الطبية والأقوال الحكمية، وغرضه في الأساس تعليمي، إلا أنه يمزج كل ذلك بفكاهته ونقده وميوله الأدبية، وخاصة لأن أكثر هذه الأقوال يرد على لسان رجل بخيل لا يريد لرغيفه أن يكسر ولا لطعامه أن يؤكل، فهذا فيثاغورس يقول: " من ساس معدته فقد قرب جميع الأعضاء من

---

(١) معجز أحمد أبو العلاء المعري ص/٢٤٤

الاعتدال " (٢) ، وما أحسن ما قال سقراط وقد اجتاز على كساح قد أخرج من حش كساحة " يا أهل أثينا هذا الذي كنتم تغلقون عليه أبوابكم وتقيمون لحفظه الخزان " (٣) ، والحكيم بقراط يقول: " ليس بالخبز يحيا الإنسان بل بكل كلمة طيبة " (٤) ، وسقراط يقول: " أن أحببت أن تأكل فلا تأكل حتى تأكل " وأفلاطون يقول: " آكل لأعيش لا أعيش لأكل " (٥) ، وجالينوس يقول: " أجيل الناس من ملأ بطنه من كل ما يجده " (٦) ، إلى غير ذلك من أقوال يتحدد هدفها بمعرفة الشخص الذي يرددها. بل أن ابن بطلان ليقتبس من هذه الثقافة في المواقف المختلفة دون أن يعنى أحيانا بنسبة القول إلى صاحبه، فقوله: اعلم يا سيدي أنه ليس الآمر بأسعد من المطيع له، ولا الناصح أولى بالنصيحة من المنصوح له " (٧) ، هو فاتحة رسالة منسوبة إلى أرسطاطاليس بعث بها إلى

---

(١) دعوة الأطباء: ٢١.

(٢) دعوة الأطباء: ٢٢.

(٣) دعوة الأطباء: ٢٣.

(٤) في نسبة هذا القول – إلى ابقراط غرابة لأنه ينسب إلى المسيح، ومما يزيد الأمر غرابة أن يرويه ابن بطلان كذلك وهو مسيحي متدين.

(٥) دعوة الأطباء: ٢٦.

(٦) دعوة الأطباء: ٢٧.

(٧) دعوة الأطباء: ٣١.." [١]

"بنغمة واحدة عن (مآسي) الزواج (١) ، أو يذهبان إلى القول بأن الشعراء لم يغادروا متردما؟ كما يقول عنترة واكزنارخوس (٢) ، أو يغبطان الحجر لأنه لا يحس أو الحيوان لأنه لا يعني نفسه بالإجابة عن هذه المسألة أو تلك (٣) ، أو يشجبان التفاخر بالمحتد النبيل تغطيه لتخلف في العمل (٤) – فعلى أي شيء نحمل كل هذا التشابه وأمثاله في أمور مختلفة؟

الواقع أن كل ذلك وغيره قد يحمل على التشابه في نتائج التجارب الإنسانية، ولكن التماثل يبلغ حدا من الدقة يتعذر عنده نفي كل صورة اللقاء بين الأدبين، وهنا قد يذهب بعض الناس إلى القول بالأخذ أو **الاحتذاء** نتيجة الإطلاع المباشر، وهذه قضية لا يسهل إثباتها، لأنها تحتاج إلى وثائق مؤيدة، ومثل هذه الوثائق المؤيدة لا وجود له في الغالب. وقد يذهب البعض الآخر إلى القول باللقاء بين حضارتين لقاء تجاوز التأثر السطحي، فمن المؤكد أن العرب بعد الفتح انتشروا في عالم تغلب عليه الحضارة الهلنستية، والثقافة الكلاسيكية، وأنهم ورثوا من هذه الحضارة لا كتبا ترجموها وحسب، بل مؤسسات وأصولا ثقافية ومناهج تعليمية، ولهذا كان ظهور المشابه أمرا يكاد يكون محتوما، والأمثلة على ذلك عديدة، في المجالات المختلفة، وإنما أكتفي منها هنا بأمثلة موجزة (٥) :

---

(١) ملامح يونانية في الأدب العربي إحسان عباس ص/١٧١

١ – اعتقد العرب – مثلما اعتقد اليونانيون أن الشعر " ديوانهم "، ولهذا كان اليونانيون يرون أن أوميرس هو نموذج " التراث "، ولم يحد العرب عن هذا المعتقد، إلا حين رسخت لديهم العلوم وتدريسها، أما اليونان فإن المفهوم تغير لديهم قليلا بعيد عصر الفلسفة. على أن الفريقين اعتقدا أن الشعر أداة للتخليد، ومن أقدم الشواهد على ذلك

---

(١) المصدر السابق: ٦٥.

(٢) المصدر السابق: ٨٩.

(٣) المصدر السابق: ٩٨.

(٤) المصدر السابق: ١١١.

(٥) هذه الأمثلة مستوحاة – إلا أشير إلى ذلك – من كتاب:

E.R. Curtius: European Literature and the Middle Ages، Princeton، Princeton University Press، 1973.." [١]

"أو أعمامه نزعهم، ونزعوه، ونزع إليهم، ونزعه عرق الخال، ويقال في المتشابهين: ما أشبه حجل الجبال بألوان صخرها، وما أشبه الحول بالقبل، وما أشبه الليلة بالبارحة، ويقال: خلف عن خلق أبيه إذا تحول عنه وفسد.

فصل في القدوة **والاحتذاء**

يقال: حذوت حذو فلان، ونحوت نحوه، وتلوت تلوه، وقصدت قصده، وأخذت إخذه، واقتديت بسيرته، ونهجت سبيله، وذهبت مذهبه، وسلكت طريقته، وقفوت إثره، وائتممت بهديه، ويممت سمته، وجريت على منهاجه، وقصصت أثره، وتخلقت بأخلاقه، وتحليت بحليته، وتسومت بسيماه، واتسمت بسمته، واقتست به، واستننت بسنته، واسترت بسيرته، ووطئت مواقع قدمه، وطبعت على غراره." [٢]

"أسلوب المنفلوطي:

يقول المنفلوطي في مقدمة النظرات: "يسألني كثير من الناس كما يسألون غيري من الكتاب: كيف أكتب رسائلي؟ كأنما يريدون أن يعرفوا الطريق التي أسكلها إليها فيسلكوها معي، وخيرا لهم ألا يفعلوا، فإني لا أحب لهم ولا لأحد من الشادين في الأدب أن يكونوا مقيدين في الكتابة بطريقتي، أو طريقة أحد من الكتاب غيري، وليعلموا –إن كانوا يعتقدون لي شيئا من الفضل في هذا الأمر– أني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون لي الفضل فيه، إلا؛ لأني استطعت أن أتفلت من قيود التمثل **والاحتذاء**، وما نفعني من ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها عن أن تمسك إلا قليلا من المقروءات التي كانت تمر بي".

---

(١) ملامح يونانية في الأدب العربي إحسان عباس ص/١٧٨

(٢) نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد اليازجي، إبراهيم ٣٠٧/١

ويقرر المنفلوطي في هذه الفقرة أنه على الرغم من قراءته الكثيرة، فلم يحاول أن يحاكي كاتبا بذاته، وأنه استطاع أن يتفلت من قيود التمثل **والاحتذاء** على حد قوله: "فلقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ، ثم لا ألبث أن أنساه، فلا يبقى منه في ذاكرتي إلا جمال آثاره وروعة حسنه ورنة الطرب به، وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي، أو أستعين به على تهذيب بياني".

وكأني به يعيب على هؤلاء الذين يقلدون الأقدمين في أساليبهم، وبخاصة كتاب المقامات والذين أولعوا بالسجع، والحق أن المنفلوطي استطاع أن يسلك طريقا جديدة في التعبير الأدبي متحاشيا قدر المستطاع تقليد سواه، وعلى الرغم من ضعف ذاكرته كما يزعم، وأنها لم تحتفظ بكثير من التعبيرات القديمة، وأنه لم يقرأ ليحشو حافظته بهذه التعبيرات حتى يستعين بها على تهذيب بيانه، فسنرى بعد قليل أن مقدارا كبيرا من هذه المحفوظات قد جرى إلى قلمه من غير إرادة منه.

كان المنفلوطي يميل إلى الترسل، ولكنه ليس كترسل ابن خلدون، بل ذلك الترسل الأدنى الذي لا يعمد فيه إلى السجع إلا نادرا، وبدون تكلف، ويعمد في معظم الأحيان إلى الازدواج، ومراعاة النغم والانسجام بين فواصل الجمل، وحسن انتقاء الألفاظ، متجنبا منها الحوشي والغريب قدر المستطاع، وإن استخدم بعضه أحيانا على سبيل بعث الكلمة وإحيائها.

ولقد عرفنا فيما مضى كيف ظل السجع متلكئا حتى العقد الأول من القرن العشرين، ولم يكن من اليسير على أي كاتب أن يتخلص منه تخلصا كاملا، ولا سيما في الموضوعات الأدبية التي يختص بها، وليس السجع في مثل هذه الموضوعات بمستنكر أو مستكره، والمنفلوطي وإن مال إلى الترسل والازدواج في معظم مقالاته إلا أن ثمة موضوعات كان انفعاله فيها شديدا، واهتمامه بها عظيما، فغلب عليها السجع كموضوع سقوط عبد الحميد سلطان تركيا ذي الحول والطول والجبروت، والذي كتبه تحت عنوان "دورة الفلك"، ويقول في مستهله مخاطبا قصر "يلدز" الذي كان مقر خليفة المسلمين بالآستانة:." (١)

"فهرس عمراني

أ

(١) نشأة النثر الحديث وتطوره عمر الدسوقي ص/٢٢٨

١٤٥/٦٣/تخبر له

١٢٩/٥٧/تشك." (١)

"وأورد هذه القصة صاحب البدائع بقوله (١) : حضر أبو المطرق ابن عبد العزيز عند المؤتمن بن هود في يوم أجرى الجو فيه أشقر برقه، ورمى بنبل (٢) ودقه، وتحملت (٣) الرياح في أوقار السحاب على أعناقها، وتمايلت قامات الأغصان في الحلل الخضر من أوراقها (٤) ، والرياح قد أشرقت نجومها في بروج الراح، وحاكت شمسها شمس الأفق فتلفعت بغيوم الأقداح، ومديرها قد ذاب ظرفا فكاد يسيل من إهابه وأخجل خدها حسنا فتظلل بعرق حبابه، إذا بفتى من فتيان المؤتمن قد أقبل متدرعا كالبدر اجتاب سحابا، والخمر قد اكتست حبابا (٥) ، وقد جاء يريد استشارة المؤتمن في الخروج إلى موضع كان عول فيه عليه، وأمره أن يتوجه إليه، فحين لمحه ابن عمار والسكر قد استحوذ على لبه، وبث سراياه في ضواحي قلبه (٦) ، جد في أن يستخرج تلك الدرة من ماء ذلك الدلاص، وأن يجلي عنه سهكه كما يجلى الخبث عن الخلاص، وأن يكون هو الساقي (٧) ، فأمره المؤتمن بقبول أمره وامتثاله، واحتذاء مثاله، فحين ظهرت تلك الشمس من حجبها، ورميت شياطين النفوس من كميت المدام بشهبها، ارتجل ابن عمار وهويته ... إلخ إلا أنه قال إثر قوله:

---

(١) انظر بدائع البدائه ٢: ١٣٣ وسيرد هذا النص في الباب السابع من النفح.

(٢) البدائع: ببندق.

(٣) البدائع: وحملت.

(٤) زاد في البدائع والباب السابع: والأزهار قد تفتحت عيونها والكمائم قد ظهر مكنونها، والأشجار قد انقلت بالقطر (بمداوس القطر) ؛ ونثرت ما يفوق ألوان البز، وبثت ما يعلو أرواح العطر.

(٥) بعدها في البدائع والباب السابع: والطاووس انقلب حبابا، فهو ملك حسنا إلا أنه جسد، وغزال لينا إلا أنه (في هيئة) الأسد.

(٦) بعدها في البدائع والباب السابع: فأشار إليه وقربه واستبدع ذلك اللباس واستغربه وجد ...

(٧) ف البدائع والباب السابع: وأن يوفر على ذلك الوفر نعمة جسمه، ويكون هو الساقي على عادته القديمة ورسمه.." (٢)

"كف هذا النهد عني ... فبقلبي منه جرح

هو في صدرك نهد ... وهو في صدري رمح ١٠٨ – وعبر في البدائع على طريقة القلائد بما صورته (١) : ذكر الفتح بن خاقان ما هذا معناه: أخبرني ذو الوزارتين أبو مطرف ابن عبد العزيز أنه حضر عند المؤتمن بن هود في يوم أجرى الجو فيه أشقر برقه، ورمى بنبل ودقه، وحملت الرياح فيه أوقار السحاب على أعناقها، وتمايلت قامات الأغصان في الحلل الخضر

---

(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة التنوخي، المحسن بن علي ٣٠٧/٨

(٢) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٦٥٤/١

من أوراقها، والأزهار قد تفتحت عيونها، والكمائم قد ظهر مكنونها، والأشجار قد انصقلت بالقطر، ونشرت ما يفوق ألوان البز وبثت ما يعلو العطر، والراح قد أشرقت نجومها في بروج الراح، وحاكت شمسها شمس الأفق فتلفعت بغيوم الأقداح، ومديرها قد ذاب ظرفا فكاد يسيل من إهابه، وأخجل خدها حسنا فتكلل بعرق حبابه، إذا بفتى رومي من أصبح فتيان المؤتمن قد أقبل متدرعا كالبدر اجتاب سحابا، والخمر اكتست حبابا، والطاووس انقلب حبابا، فهو ملك حسنا إلا أنه جسد، وغزال لينا إلا أنه في هيئة الأسد، وقد جاء يريد استشارة المؤتمن في الخروج إلى موضع كان عول فيه عليه، وأمره أن يتوجه إليه، فحين وصل إلى حضرته لمحه ابن عمار والسكر قد استحوذ على لبه، وانبثت سراياه في ضواحي قلبه، فأشار إليه وقربه، واستبدع ذلك اللباس واستغربه، وجد في أن يستخرج تلك الدرة من ماء ذلك الدلاص، وأن يجلي عنه سهكه كما يجلى الخبث عن الخلاص، وأن يوفر على ذلك الوفر نعمة جسمه، ويكون هو الساقي على عادته القديمة ورسمه، فأمره المؤتمن بقبول أمره وامتثاله، واحتذاء أمثاله، فحين ظهرت تلك الشمس من حجبها، ورمت شياطين النفوس من كمت المدام بشهبها، ارتجل ابن عمار:

---

(١) بدائع البدائه ٢: ١٣٣؛ وانظر النفح ج ١ ص: ٦٥٤.." [(١)]

"سر القبعة"

وحدثني صاحب سر "م" باشا، قال: نجمت في مصر حركة بعقب أيام البدعة التركية، حين لم تبق لشيء هناك قاعدة إلا القاعدة الواحدة التي تقررها المشانق. فمن أبي أن يخلع العمامة عن رأسه خلعوا رأسه؛ ومن قال: "لا" انقلبت" "لا" هذه مشنقة فعلق فيها.

وكانت فكرة اتخاذ القبعة في تركيا غطاء للرأس، قد جاءت بعد نزعات من مثلها كمات يجيء الحذاء في آخر ما يلبس اللابس، فلم يشك أحد أنها ليست قبعة على الرأس أكثر مما هي طريقة لتربية الرأس المسلم تربية جديدة، ليس فيها ركعة ولا سجدة؛ وإلا فنحن نرى هذه القبعة على رأس الزنجي والهمجي، وعلى رأس الأبله والمجنون، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض، ولا عرفناها نقلت همجيا عن طبعه، ولا عم أحد أنها أكملت العقل الناقص أو ردت العقل الذاهب، أو انقلبت آلة لحل مشكلات الرأس البليد، أو غصبت الطبيعة شيئا وقالت: هذا لحاملي دون حامل الطربوش والعمامة.

وقد احتجوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجه إلا المدنية، ولا يعرف المدنية إلا مدنية أوروبا، فهو يمثلها كما هي في حسانتها وسيئاتها، وما يحل وما يحرم وما يكون في حاجة إليه وما يكون في غنى عنه؛ حتى لو أن الأوروبيين كانوا عورا بالطبيعة، لجعل هو قومه عورا بالصناعة ليشبهوا الأوروبيين. نعم إنها حجة تامة لولا نقص قليل في البرهان، يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتب الفتوح العثمانية، يظهر فيها الخلفاء العظام والأبطال المغاوير الذين قهروا الأوروبيين لابسين قبعات، ليشبهوا الأوروبيين.

قال صاحب السر: وتهور في هذه الضلالة رهط من قومنا، وأخذوا يدعون إلى التقبع في مصر احتذاء لتركيا، وذهب

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٣٢٧/٣

بعضهم إلى سعد باشا "رحمه الله" يطلب رأيه، فكان رأيه "لا" بمد الألف ... وعهد إلي بعضهم أن أسأل الباشا، فقال: ويحهم! ألا يخجلون أن نكون –نحن المصريين– مقلدين للتقليد نفسه؟ إن." (١)

"تظهر فيهم العظمة الروحانية آمرة ناهية في المادة، لا مأمورة منهية بها؛ ويرتفع كل منهم بنفسه، فيكون مقرر خلق في الحياة قبل أن يكون معلم علم في الحياة؛ لينبث منهم مغناطيس النبوة يجذب النفوس بهم أقوى مما تجذبها ضلالات العصر؛ فما يحتاج الناس في هذا الزمن إلى العالم –وإن الكتب والعلوم لتملا الدنيا– وإنما يحتاجون إلى ضمير العالم.

وقد عجزت المدنية أن توجد هذا الضمير، مع أن الإسلام في حقيقته ليس شيئا إلا قانون هذا الضمير؛ إذ هو دين قائم على أن الله لا ينظر من الإنسان إلى صورته ولكن إلى عمله؛ فأول ما ينبغي أن يحمله الأزهر من رسالته: ضمائر أهله.

والناس خاضعون للمادة بقانون حياتهم، وبقانون آخر هو قانون القرن العشرين.. فهم من ثم في أشد الحاجة إلى أن يجدوا بينهم المتسلط على المادة بقانون حياته؛ ليروا بأعينهم القوى الدنيئة مغلوبة، ثم ليجدوا في هذا الإنسان أساس القدوة **والاحتذاء**، فيتصلوا منه بقوتين: قوة التعليم، وقوة التحويل.

وهذا هو سر الإسلام الأول الذي نفذ به من أمة إلى أمة ولم يقم له شيء يصده؛ إذ كان ينفذ في الطبيعة الإنسانية نفسها.

ومن أخص واجبات الأزهر في هذا القرن العشرين أن يعمل أول شيء لإقرار معنى الإسلام الصحيح في المسلمين أنفسهم؛ فإن أكثرهم اليوم قد أصبحوا مسلمين بالنسب لا غير.. وما منهم إلا من هو في حاجة إلى تجديد إسلامه.

والحكومات الإسلامية عاجزة في هذا؛ بل هي من أسباب هذا الشر؛ لأن لها وجودا سياسيا ووجودا مدنيا؛ أما الأزهر فهو وحده الذي يصلح لإتمام نقص الحكومة في هذا الباب، وهو وحده الذي يسعه ما تعجز عنه؛ وأسباب نجاحه مهيأة ثابتة؛ إذ كان له بقوة التاريخ حكم الزعامة الإسلامية، وكانت فيه عند المسلمين بقية الوحي على الأرض، ثم كان هو صورة المزاج النفسي الإسلامي المحض؛ بيد أنه فرط في واجب هذه الزعامة، وفقد القوة التي كان يحكم بها، وهي قوة المثل الأعلى التي كانت تجعل الرجل من علمائه كما قلنا مرة: إنسانا تتخيره المعاني السياسية تظهر فيه بأسلوب عملي، فيكون في قومه ضربا من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها، مشروحة بهذا المثال نفسه.

والعقيدة في سواد الناس بغير هذا المثل الأعلى هي أول مغلوب في صراع قوى الحياة.." (٢)

"وفي هذه القصيدة بيت وقفت عنده أرى صبري باشا في صبري أفندي كأنه خيال مولود يستهل، وذلك قوله:

فطول من الهجران عل وقوفنا ... طول معا –يا قاتلي– ساعة الحشر

ويكاد هذا البيت يكون أول انقلاب للفكرة فيه: وهو غريب، والتأمل فيه أغرب، ولكنه يدل على خيال سيشب يوما على أقطار السموات.

وفي ذلك الزمن عينه كان البارودي شهابا يتلهب، وكان قد بلغ مبلغه واستجمع أسباب نهايته، بل هو نظم قبل ذلك بست سنوات قصيدته الشهيرة:

---

(١) وحي القلم الرافعي ، مصطفى صادق ٢٦٤/٢

(٢) وحي القلم الرافعي ، مصطفى صادق ٣٢/٣

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان ... وهفا السرى بأعنة الفرسان

فلم يكن ليذهب وجه الشعر عن صبري، ولم يكن ليغضي عند **احتذاء** هذه الصنعة البارعة ويأخذ في غيرها لولا أن فيه طبعا مستقلا يذهب إلى كماله في أسلوب آخر كأسلوب كل زهرة في غصنها؛ وأخص أحوال صبري أنه لم يرد أن يكون شاعرا فجاء أكبر من شاعر، وكان السبب الذي صرفه من ناحية هو نفسه الذي جاء به من ناحية أخرى.

ينبغ الشاعر بأربعة أشياء لا بد منها: طريقة الدرس التي عالج بها الشعر، وكتب هذه الطريقة، والرجال الذين هم أمثلتها في نفسه، ثم ... ويالله من "ثم" هذه، فهي اللمحة السماوية التي تشرق على فؤاد الشاعر من وجه جميل، والثلاث الأولى تنشئ نبوغا معروفا في نوعه ومقداره، ولكن الأخيرة هي طريق القدر التي لا يعرف آخرها؛ وإذا تجددت في حياة الشاعر أو اتصلت تجدد بها نبوغه أو اتصل، فعلى قدر ما يحب تحبوه السماء من أسرار الجمال، وهي نفسها أجمل أسباب الشعر وأجمل معانيه وأجمل غاياته، فهي هي المادة التي تؤلف بين نفس الشاعر وبين معنى الجمال الشعري في هذا الكون كله؛ وإذا أنت نزعت النظرة والابتسامة –وهما عنصرا تلك المادة– من حياة الشاعر، نزعت الحياة نفسها في شعره فما يبقى منه إلا أنه مقبرة للألفاظ والمعاني، وتسمع شعره فلا تجزيه به أحسن من قولك: يرحمك الله ... وصبري لم يدرس الشعر في الكتب أكثر مما درسه في الوجوه والعيون، وقد عالج هذا الشعر في بدايته ليتأتى إليه من طرقه البعيدة؛ أما الرجال الذين كانوا أمثلته فكانوا رجال الظرف والرقة والنكتة المصرية الشهيرة التي انفرد بها الطبع المصري ونص عليها علماء البلاغة، كالسكاكي." (١)

"وإذا تبينت هذا وحققته أدركت لماذا يتخبط منتحلو الجديد بيننا وأكثرهم يدعيه سفاها ويتقلده زورا، وجملة عملهم كوضع الزنجي الذرور الأبيض "البودرة" على وجهه ثم يذهب يدعي أنه خرج أبيض من أمه لا من العلبة.. فإن منهم من يصنع رسالة في شاعر وهو لا يفهم الشعر ولا يحسن تفسيره ولا يجده في طبعه؛ ومنهم من يدرس الكاتب البليغ وقد باعده الله من البلاغة ومذاهبها وأسرارها، ومنهم من يجدد في تاريخ الأدب، ولكن بالتكذب عليه والتقحم فيه والذهاب في مذهب المخالفة، يضرب وجه المقبل حتى يجيء مدبرا، ووجه المدبر حتى يعود مقبلا، فإذا لكل فريق جديد، وينسى أن جديده بالصنعة لا بالطبيعة وبالزور لا بالحق.

ألا إن كل من شاء استطاع أن يطب لكل مريض، لا يكلفه ذلك إلا قولا يقوله وتلفيقا يدبره، ولكن أكذلك كل من وصف دواء استطاع أن يشفي به؟

وبعد؛ فقد قرأت رسالة امرئ القيس التي وضعها الأديب السيد محمد صالح سمك، فرأيت كاتبها –مع أنه ناشئ بعد– قد أدرك حقيقة الفن في هذا الوضع من تجديد الأدب، فاستقام على طريقة غير ملتوية، ومضى في المنهج السديد، ولم يدع التثبت وإنعام النظر وتقليب الفكر وتحصين الرأي، ولا قصر في التحصيل والاطلاع والاستقصاء، ولا أراه قد فاته إلا ما لا بد أن يفوت غيره مما ذهب في إهمال الرواة المتقدمين وأصبح الكلام فيه من بعدهم رجما بالغيب وحكما بالظن.

فإن امرأ القيس في رأيي إنما هو عقل بياني كبير من العقول المفردة التي خلقت خلقتها في هذه اللغة، فوضع في بيانها أوضاعا

---

(١) وحي القلم الرافعي ، مصطفى صادق ٣/٢٣٥

كان هو مبتدعها والسابق إليها، ونهج لمن بعده طريقتها في **الاحتذاء** عليها والزيادة فيها والتوليد منها؛ وتلك هي منقبته التي انفرد بها والتي هي سرد خلوده في كل عصر إلى دهرنا هذا وإلى ما بقيت اللغة؛ فهو أصل من الأصول، في أبواب من البلاغة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما، حتى لكأنه مصنع من مصانع الغة لا رجل من رجالها؛ وكما يقال في أممنا في أمم الصناعة: سيارة فورد وسيارة فيات، يمكن أن يقال مثل ذلك في بعض أنواع البلاغة العربية: استعارة امرئ القيس، وتشبيه امرئ القيس.

ولكن تحقيق هذا الباب وإحصاء ما انفرد به الشاعر وتأريخ كلماته البيانية مما لا يستطيعه باحث وليس لنا فيه إلا الوقوف عند ما جاء به النص.

ولقد نبهنا في "إعجاز القرآن" إلى مثل هذا؛ إذ نعتقد أن أكثر ما جاء في القرآن الكريم كان جديدا في اللغة، لم يوضع من قبله ذلك الوضع ولم يجر في." (١)

(١) وحي القلم الرافعي ، مصطفى صادق ٣١٩/٣